يحيى الخشاب

حكايات فارسية



دار الكاتب المصرى

حكايات فارسية



يحيى الخشاب

حكايات فارسية



دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . نوفمبر ١٩٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

يمثل الأدب الفارسى من القصة فنوناً أربعة ، أولها قصص الملوك الذى يدور حول مايجب للملك من رعيته وما يجب عليه نحوها ، والثانى قصص هدفه العبرة والعظة ، والثالث قصص يرمى إلى الإيماء والرمز فى تصوير أحداث التاريخ التى تحول الظروف دون تصويرها فى صراحة وجلاء ، والرابع قصص تاريخى يقصد به إذكاء الروح الوطنى فى سامعيه فتختلط فيه حقائق التاريخ بالخرافات وفقاً لما يريد المؤلف من تأثير فى سامعيه .

ولقد اخترنا فى هذه المجموعة التى نخرجها لقراء العربية جملة من القصص فى كل من هذه الفنون ، أردنا أن نخرج منها بصورة عامة عن فن القصة فى الأدب الفارسى . ولما كان لكل من هذه الفنون كتب فى الفارسية تمثله فقد رجعنا إلى أشهرها فى كل باب ، واخترنا منه ما رأيناه يلائم الذوق العربى أكثر من غيره ، وآثرنا أن نذيّل كل قصة بذكر الكتاب الذى أخذت عنه ليعود إلى الأصل من شاء ، أما القصص المشهورة التى يعرفها كل ذى إلمام بالأدب الفارسى فقد رجعنا فيها إلى أكثر من مصدر لتعدد ذكرها وكثرته لنأخذ من كل هذا صورة عامة للقصة نخرجها عليها .

وليست هذه القصص ترجمة فى الواقع ، فنحن لم نتقيد بالنص الفارسى

ذلك التقييد الدقيق الذى تفرضه أمانة الترجمة اللفظية ، لأنا آثرنا أن نخرج هذه القصص إلى الأمة العربية أقرب مايكون إلى نفوس أهلها .

وإنا لنعترف أن ماقدمنا ليس إلا محاولة نرجو أن نكون قد وفقنا فيها فى نقل هذا الأدب إلى اللغة العربية ، محاولة لم نرد بها أكثر من إحياء ذلك العهد الذى طواه الزمن ، عهد اتصال الفرس بالعرب اتصالا قريباً وثيقاً ، أيام كان العرب يعنون بنقل آثار الفرس إلى لغتهم ويحرصون على ذلك حرصاً شديداً تمليه عليهم نهضتهم العظيمة ليفيدوا من هذا الأدب القديم الغنى كل مايمكن أن يفيدوه ، وأيام كان الفرس ينقلون عن العرب كل مايمكن أن يحيي أمتهم وأن يرد إليها مجدها القديم .

فهرس

فهرس



١

مزدك

قال ملكشاه لوزيره نظام الملك : أسمعت القصة التى يرويها عمر الخيام عن الجماعة التى تقيم فى پامير وتدعى الإسلام ولا تعمل به وتقول إن أبا مسلم سيبعث حياً وسيكون وزيره مزدك ؟ قال الوزير : نعم سمعت يا مولاى ، قال السلطان واتخذت للأمر عدته ؟ قال الوزير نعم ، قال ملكشاه تعال إذاً للعشاء وحدثنا عن مزدك هذا من يكون . قال نظام الملك :

كان ذلك الرجل أول من نادى بالشيوعية فى أخبث معانيها ، وقد كان من كبار رجال الدين الأذكياء ، أيام الملك قباد الساسانى ، وقد أبصر الرجل فوجد الشعب الإيرانى لا زال يئن من قحط ألمّ به أيام الملك فيروز ، وطبقة الأثرياء ، من الأشراف ورجال الدين ، تنعم بخيرات إيران وتستأثر بها دون سائر الناس ؛ ثم أبصر قباد فإذا به حانق على الأشراف لأن نفوذهم امتد على الملوك وأصبح لهم على العرش سلطان ، وحانق على رجال الدين أيضاً لأنهم يناصرون الأشراف ويشاركونهم فى الجشع الذى لا يعرف حداً ، فهم يؤثرون الدنيا على الدين ويدّعون هداية الناس ويحاولون بشتى الطرق أن يزيدوا أملاكهم ويوسعوا امتيازاتهم ؛ وأدرك أن الملك ضعيف القياد ، لين العريكة ، ليس من العسير التغلب عليه .

وكان لمزدك علم بالنجوم وأحكامها ، وقد عرف من كتبها أن نبياً سيُرسَل ، فرأى أن يكون هذا النبي ، وأخذ يفكر في طريقة لإثبات نبوته ؛ فأمر خدمه بحفر قناة تبدأ من مكان أخفاه فأحسن إخفاءه ، وتمتد إلى حيث النار في المعبد ، بحيث لا يستطيع أحد أن يراها ، ويستطيع تابع له أن يتكلم من الطرف المخفى ،فيسمع صوته ينبعث من وسط النار كأنها تتكلم . ثم أعلن نبوته وادعى أن يزدان (الإله) قد أرسله ليجدد دين زردشت وليجدد معانيه ويبين أحكامه ، ويهدى الناس إلى الأفستا والزند (كتابهم المقدس وتفسيره) ، ولم يكن بعثه بين الأنبياء بدعاً ؛فمن قبل بعث الله نبياً ليهدى بنى إسرائيل إلى أحكام التوراة . .

وبلغت الدعوة الملك قباد فجمع رجال الدين جميعاً ليسمعهم قصة بعث واحد منهم نبياً وليستوضحهم الأمر ، وجاء مزدك وقد انتفخت أوداجه ، فبادره الملك بالسؤال عن نبوته فأكدها ودعاه إلى طاعته ، قال : فقد بعثنى الله لأقضى على ما بينكم من خلاف فى أمر الدين ، فقد رأيتكم تختلفون فى تفسير أحكام الأفستا اختلافاً أفسد حكمتها ، وأضاع من نفوس الناس هيبتها ، ثم رأيتكم تسيرون فى أمور الدنيا سيراً يتجافى مع أوامر « يزدان » ويتنافى مع حقوق الناس فى متاع الدنيا . قال الملك : وما معجزتك ؟ قال مزدك : إنى قادر على أن أحمل النار التى هى محرابكم وقبلتكم على الكلام ، وأنا كليم الله أسأله أن يأمر النار لتحدثكم عن رسالتى ولتشهد بصدق نبوتى .

والتفت الملك إلى الموابذة وقال : أفتونى فى أمر رجلكم هذا ؛ إنه يدعى النبوة ويُبشر بدين جديد . قالوا : إنا قرأنا فى كتابنا أن نبياً يبعث فيظهر دينه على سائر الأديان ، وإنا سمعنا من مزدك أنه بعث ليجدد دين زردشت ، فهو لا يحارب ديننا ، ولا يدعو لإله غير إلهنا ، ثم إنه يقول إنه قد أتى بتفسير

للأقستا يضع للجدال فيها حداً وهذا أمر كلنا راغب فيه ، ثم هو يقول : إنه قادر على أن يحمل النار على الكلام ، وليس هذا فى طاقة البشر ، إلا أن يكون رسولاً نبياً ، وإنا وقد دعانا الملك لنسمع مزدك ودعوته ، نفوض الأمر لملكنا وندعو له بالتوفيق والسداد .

قال الملك لمزدك : إن أنت أنطقت النار أمامنا صدقنا نبوتك ، وآمنا برسالتك ؛ وتواعد الجمع على اللقاء فى الغد فى بيت النار ليروا معجزة النبي الجديد . . . وخرج مزدك فاتصل بأخلص أتباعه إليه وأقربهم منه ، وأمره بأن يذهب إلى حيث فتحة القناة مخبأة ، وأن يجيب حين يسأل مزدك النار « بأن النار التى هى خير عابدى يزدان ، تأمر الناس بأن يطيعوا مزدك ويخلصوا له الدين ليلقوا السعادة فى الدنيا ولينعموا بالجنة فى الآخرة » .

وجاء الغد فاجتمع الموابذة وعلى رأسهم الملك فى بيت النار ، ودخل مزدك فاتخذ مكانه قريباً منها ، فدعى يزدان وأثنى على زردشت ثم سكت ، وإذا بصوت يخرج من وسط النار يدعو الناس إلى طاعة مزدك والدخول فى دينه ، فبهت الحاضرون ، والتفت بعضهم إلى بعض يتهامسون ، أما قباد فقد آمن بنبوة مزدك ، وأما رجال الدين فنهم من آمن ومنهم من شك فيما سمع . . .

وزادت مكانة مزدك عند الملك فأعد له كرسياً من ذهب فوق العرش ، فكان إذا جلس يستمع إلى قضايا الناس جاء مزدك فاتخذ مكانه على كرسيه الذى علا الملك . أما الشعب فقد دخل فى الدين الجديد أفواجاً ، فقد بدأ مزدك رسالته بالدعوة إلى المساواة بين الناس ، تملقاً لهم ، وهى دعوة تبهر الجماهير وتدعو إلى أن يكونوا جميعاً مع صاحبها ، مهما أخفت من خداع ورياء تحت مظهرها البراق ، وأما رجال الدين فقد خرجوا من بيت النار وهم بين مصدق

ومكذب ، ولـكنهم عندما عادوا إلى أنفسهم أنكروا صاحبهم ورسالته ، ولـكنهم آثروا أضعف الإيمان فاكتفوا بما تحدث به قلوبهم ، وأما رجال الجيش فلم يتحمسوا للدعوة الجديدة ولـكنهم ساروا وراء الملك أو وراء ابنه ، معلنين أنهم على دين ملوكهم .

قال مزدك : إن الثروة ينبغى أن تكون ملـكاً للجميع ، لـكل نصيب منها حسب حاجته ، لأن الناس جميعاً أبوهم آدم وأمهم حواء ، ولأن خيرات إيران أنتجتها أرض إيران التى أنبتتهم جميعاً ، وسقتها سماء إيران التى تظلهم جميعاً ، فالعدل أن يكونوا فى بلدهم سواسية ، ينعمون بنعيمها فلا ترى فيهم فقيراً محروماً . . وزاد هذا النداء فى التفاف النـاس حوله ومسارعتهم فى قبول دعوته . . ثم نادى ببدعة جديدة ، الشيوع فى النساء ، فدعا الناس إلى أن تكون النساء شركة بينهم ولا وزن للأنساب ؛ وكان قليل من الناس يملك مئات من الجوارى وله بضع زوجات ، وكثير من الناس لا يجد وفرة فى الرزق تمكنه من أن يكون زوجاً لامرأة واحـدة ، وإذاً فالسواد الأعظم راغب فى المرأة لأنه محروم منها ، فلم يكد مزدك يعلن هذا الرأى حتى هرع الناس من الأقاليم لبيعته والعمل بدعوته ، ووضع لهم مزدك نظاماً لهذه الإباحة ، فإذا استضاف الرجل عشرين رجلا فى بيته فإن عليه أن يقدم زوجه كما يقدم صنفاً من الطعام ، ثم إن على الضيوف إذا دخل أحدهم غرفتها أن يضع قلنسوته على بابها حتى لا يطرق الباب عليه طارق . وهكذا التف الناس حول مزدك ، ونظر العقلاء فإذا الدرجات بين الناس أوشكت على الزوال وإذا الرابطة بينهم قد قاربت الضياع ، ونظروا فإذا الغوغاء تسود ، وإذا الأشراف والنبلاء قد أخرجوا من ديارهم وحرمت عليهم أموالهم وأهدرت حرمات نسائهم وما ملـكت أيمانهم .

* * *

وكان للملك ولد اسمه نُوشَرْوَان ، يقيم بعيداً عن أبيه ، فى إقليم فارس ، فلما سمع بما جرى فى عاصمة إيران من فساد ، كاد يتميز من الغيظ ، فكتب إلى الموابذة يسألهم أن ينصحوا الملك بالقضاء على مزدك ودعوته ، فإنه قد أضاع الثروات واستباح النساء ومكن للغوغاء ، ثم حثهم على مجادلة مزدك وإظهار فسقه . وكتب إلى النبلاء محدثاً عما جرى من موافقة أبيه لهذا الفاسق ، مؤكداً أن أباه لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الخبيث من الطيّب ، ونصحهم بأن يجمعوا أمرهم طراً وأن يطلبوا منه التخلص من مزدك ومحو آثاره ، فإنه كاد يقضى على الدولة والدين معاً ، وقرن نوشروان الوعد فى كتابه بالوعيد ، فذكرهم بأن لا ينهجوا نهج أبيه ، فإنه مخدوع بدعوة فاسق ودعوة الفسق وإن أفلحت ساعة فإنها إلى الزوال تسير ، وأكد لهم أن الغد للخير وله ، وأن الغد لناظره قريب . وتأثر كثير من النبلاء بقول الأمير الشاب ، وعاد إلى صوابه من حدثته نفسه منهم بقبول دعوة مزدك ، وتراصوا وتواصوا وبعثوا إليه قائلين « إنا معك » .

واجتمع النبلاء والموابذة وقابلوا الملك وقالوا له: إنا قرأنا فى كتبنا ونظرنا فى علومنا ، منذ آدم حتى زردشت ، فما وجدنا نبياً دعى دعوة مزدك ، هذه الدعوة التى أودت بالبلاد وبالعباد ، وإنا ننصح للملك أن لا يمكّن له ، وأن يعمل على إبعاده عنه ؛ فأمر الملك بعقد مجمع دينى ، وسأل مزدك عن رأيه فى قولهم ، فقال : إنى رسول يزدان ، بعثنى لإحياء دين زردشت ولأجدد فيه بإدخال المبدئين اللذين ناديت بهما واللذين صادفا من الملك قبولا ، فإن كذبتمونى فسلوا النار تجبكم عما لا تفقهون ، ثم سأل مزدك النار ، فإذا هى

تجيب آمرة الناس بطاعته والانقياد له ؛ فأسقط فى أيديهم وخرجوا مرة أخرى وهم فى حيرة مما سمعوا ، أما قباد فزاد بمزدك إيماناً .

وعلم مزدك أن نوشروان الأمير لم يدخل فى دينه فنصح للملك أن يحمل ولى عهده على الهداية فليس من الخير أن يبقى فى ضلالة وليس من الأدب أن يخالف أباه ؛ وكان الملك مشفقاً حقاً على ولده لأنه لم يؤمن برسالة مزدك ، فناداه ونصح له ، بالعنف حيناً وباللين أحياناً ، فلم يظفر منه بشىء ، فلما أخذ عليه عقوقه قال : لقد بدأت يا أبت بالعقوق لآبائك فليس لك أن أطيعك بعد اليوم ، ألم تر أنك باتباع مزدك قد خالفت سنن آبائك جميعاً وكان عليك أن لا تخالفهم لتطيع الدجال الخادع ! وكان مزدك حاضراً هذا النقاش فقال للأمير : إن عليك أن تثبت ، كما يبدو لك ، أنى دجال خادع . فقال نوشروان : أمهلانى أربعين يوماً أعد فيها عدتى ، قال مزدك : ولك أن تختار رجلا تثق به لمناظرتى ، فإن أثبت رأيك فىّ قتلنى الملك وإن عجزت عن ذلك قُتلتَ لتكون عبرة للناس وعظة ، حتى لا تحدثن أحد نفسه بالتجنى على رسول يزدان الأمين .

وسافر نوشروان إلى فارس ، فكتب إلى موبدها ، وهو صدّيق بارع فى علوم الدين ، وحدثه بما جرى بينه وبين مزدك والملك ؛ وفى اليوم الأربعين كان نوشروان فى بلاط أبيه ، فقد كان معه على ميعاد .

قال مزدك : تحدث يا أميرنا وأثبت ما ذهبت إليه من الافتراء علينا والطعن فى رسالتنا ، فقال نوشروان : إن لى اقتراحاً ، فقاطعه مزدك صائحاً : لا اقتراح وقد انقضى الأجل ، خذوه فغلّوه . فهجم عليه جماعة من حرس مزدك وأرادوا قيده وقتله ، ولكن الأمير دفعهم عن نفسه وقال لأبيه الملك : فيم العجلة ؟ ألم أشترط أربعين يوماً كاملة ، إن اليوم من حقى فأمهلانى

إلى الغـد . فصدق قادة الجيش على قول الأمير ، وصادف الرأى قبولا من الملك فإنه يحب ابنه ويبغض أن يقتله بيده ، وعاد رجال مزدك إلى أماكنهم ، وانفض الجمع على أن يلتقى فى اليوم التالى .

* * *

وفى المساء بلغ موبد فارس العاصمة ، ودخل القصر وقابل نوشروان ، فقص عليه هذا ما كان فى اجتماع الصباح وقال : إنه ذاهب غداً ليلقى حتفه وليقابل ربه راضياً مرضياً فى سبيل وطنه ودينه . قال الموبد : هدئ من روعك يا أميرنا واعلم أن الحق معك وأن مزدك غوى مبين ، وطلب منه أن يمكنه من مقابلة الملك قبل أن يحضر مزدك ، فهيأ الأمير هذه المقابلة .

قال الموبد للملك : إن صاحبك يا مولاى قرأ فى علم النجوم قليلا ، وقد قرأ أن نبياً يبعث فى هذا الزمان فحسب نفسه ذلك النبى ، وخفى عليه أن النبى سيكون صاحب رسالة جديدة ، وسيكون له كتاب من عند الله ، ومن معجزاته أن يشق القمر ، وسوف ينسخ دينه دين المجوس وسائر الأديان ، وسيعد المؤمنين بالجنة وسينذر الكفار بالخلود فى نار جهنم ، ومن مبادئه أن الله خلق الناس ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وسيأمر بالزواج بواحدة وسيشترط العدل بين الزوجات لمن يرغب فى المزيد منهن ، على أن لا يزدن عن أربعة ، وسيحذر الناس من الشيطان ، وسيتصل بجبريل ، ويهدم بيوت النار ، وسيكون دينه للناس كافة وسيبقى حتى يوم القيامة ، وستشهد على رسالتـه السموات والأرض . يظن مزدك يامولاى أنه هو هذا النبى وخفى عليه أنه فارسى ولن يكون النبى فارسياً ، ثم إن مزدك يدعى أنه يقوم دين زردشت ويدعو إلى عبادة النار ، والنبى القادم يدعو للقضاء عليهما ، وسيوحى

إلى النبي بواسطة جبريل (سروش) ، أما مزدك فيدعى أنه يستمد حجته من شهادة النار . . . فإذا سمح مولاى حضرت للقائه ومناظرته وسترون أنه لايقصد إقامة شريعة إنما يقصد هدم الدين والإفساد فى الأرض وخلع أسرتكم العظيمة من عرش إيران ليصبح هو ملكا .

واجتمع مزدك ونوشروان والموبد فى قاعة العرش ، حيث رأس الملك المناظرة ؛ قال الملك : من يبدأ منكما ؟ فقال مزدك : هو يسأل وأنا أجيب ، فقال الموبد : إذاً تعال مكانى وأنا آخذ مكانك . فغضب مزدك وقال هذا مكان أجلسنى فيه الملك فلا أتحول عنه . قال الموبد :

إنك يا صاحبي تنادى بشيوعية المال فهلا علمت أن الناس يشيدون الأربطة ويقيمون الجسور ويبنون بيوت النار ابتغاء الثواب يوم القيامة ؟ قال مزدك نعم . قال الموبد : فإذا كان المال شيوعا بين الناس وأراد أحدهم أن يشيد عمارة فمن أين يأتى بالنفقات ؟ فلم يحر مزدك جواباً . قال الموبد : إنك ترى الملك قباد الذى يجلس على العرش قد ورث هذا الملك عن أبيه فيروز وهذا ورثه عن آبائه ، وأنت اليوم تنادى بإباحة النساء وهدم النسب فكيف يتفق هذا والمحافظة على نسب الساسانيين ؟ فلم يحر مزدك جواباً . وأنت تنادى بشيوع المال بين الناس ، ألا ترى أن الله قد خلقهم ومنهم الغنى ومنهم الفقير ، وأن الفقير يجد عملا عند الغنى فينقده عليه أجراً ، وإذا انعدم التفاوت بين الناس فأى سلطان يبقى للملك على الناس ؟ فلم يحر جواباً .

فصاح قباد : ما جوابك ؟ فقال مزدك : جوابى أن تأمر بقتله فى التو صبراً ، قال الملك : ولكنى لا آمر بقتل آدمى لم يثبت عليه جرم . قال مزدك : فوعدنا إذاً غداً فى بيت النار لنسمع حكمها . وانصرف الجميع من المجلس وقد طابت نفوس أصدقاء نوشروان إذ نجاه الموبد من القتل ، أما مزدك

فخرج حانقاً حاقداً على قباد لأنه لم ينفذ أمره ويقتل الموبد، وقد أسرّ إلى نفسه أن أنصاره من حوله قد زادوا عدداً وأن إقصاء الملك عن عرشه قد أصبح مستطاعاً، وأنه سيلقى العون كل العون من الشعب الذى غرته المبادئ التى نادى بها .

* * *

نادى مزدك رجلين من انصاره المقربين فأخذ عليهما ميثاقاً بأن لا يبوحا لأحد بالسر الذى يأتمنهما عليه، ووعد كلا منهما بألف دينار وبأن يرفعهما إلى رتبة سپاهسلار (قائد) ، أما السر فهو أن يحضرا جلسة الغد فى بيت النار وأن يخبئ كل منهما سيفاً تحت ثوبه، فإن حمل السلاح لم يكن مباحاً فى بيت النار، فإذا ما سأل مزدك النار فأجابت بقتل قباد فإن عليهما أن يسرعا إليه بالسيف تنفيذاً لقول النار .

وأما الموبد فقد طلب من نوشروان أن يأمر عشرة من رجاله بحمل سيوفهم تحت ثيابهم استعداداً لما قد يقدم عليه مزدك وهو مغيظ .

وعقد المجلس فى بيت النار فقال مزدك للموبد : سل النار إن كانت تجيبك، فسألها الموبد فلم تنطق، فصاح بها مزدك : ألا خبرينا يا خير بنات اهورا مزدا ويا أطيب عباد يزدان ما رأيك فيما جرى بالأمس ؟ فارتفع صوت منها يقول : « إننى ضعيفة منذ الأمس، ألا حطوا فى هواى وأذكونى بقلب قباد وكبده لأحكم بينكم، ألا فليتبع مزدك من اهتدى وأراد الآخرة » فصاح مزدك : ذكوا النار ذكوها ؛ فانقض صاحباه على الملك يبغيان قتله، فدفعهما أنصار نوشروان العشرة ؛ وانقسم الحاضرون إلى فريقين، فريق يرى إحراق قباد، وفريق يرى أن يتدبر الأمر . . . وانفض الجمع .

* * *

بات قباد حزيناً تلك الليلة ، فهو ولا شك قد ارتكب وزراً ثقيلا لأن النار تطالب بقلبه وكبده وقوداً لها ، وخير له أن يقدم نفسه وقوداً فى الدنيا من أن يصلاها جحيماً فى الآخرة . ولكن الموبد ونوشروان زاراه فى الصباح الباكر ، وأخذ الموبد يبين له سعى مزدك فى انتزاع الملك لنفسه ، وكيف حاول بادئ ذى بدء أن يقضى على نوشروان ففشل ، فلما لم يفلح أراد أن يقضى على الملك نفسه ؛ ثم التفت إلى نوشروان ونصحه بأن يتصل بواحد من أنصار مزدك وأن يستدل منه على سر تكلم النار .

وعمل نوشروان بنصيحة الموبد ، قال له محدثه — بعد أن مناه إذا قال الحق وأوعده إذا كذب — إن أمام بيت النار أرض أقيمت عليها أسوار صعبة الذرى وأن قناة تحت الأرض تبدأ داخل هذه الأسوار وتنتهى بغاية الدقة عند فوهة النار ، وهى التى يتحدث بواسطتها مزدك فيسمعه تابع له يقيم داخل السور فيتكلم بما اتفق معه نبيُّه عليه ، فيظن الحاضرون أن النار تتكلم . . .

وأبلغ الموبد هذا السر للملك ، وأخذ ثلاثتهم ، الملك ونوشروان والموبد ، يتشاورون فى الأمر ، فإن القضية لم تكن قضية مزدك فحسب ، لأن هذا المتنبى قد نجح فى كسب جماعة كبيرة من الشعب ، ومنهم فئة خطيرة تحمل السيوف ، وينبغى أن تستأصل هذه الفتنة ، وأن يقضى على العقائد التى أحبها الشعب ، ثم ينبغى أن تعاد الأوضاع إلى سابق عهدها ، فتعود الملكيات لأصحابها ، ويعاد تنظيم الجباية وإدارة المرافق العامة . واتفقوا على أن يدعى مزدك فى مجمع دينى ، وأن يُعلن الموبد فى هذا المجمع عجزه عن مناظرة

مزدك ، ثم يسافر إلى فارس ، ثم يُتَّبَع بعد ذلك ما يرسم نوشروان من خطط .

وعقد المجمع وتكلم الموابذة ثم وقف موبد فارس وقال : إنى عجبت للنار كيف تتكلم ؟ قال مزدك : ليس فى هذا عجيباً فان الله ينطقها ، ألم تر إلى موسى وقد أصار عصاته حية تسعى ، أو لم تر كيف فجّر من الصخرة اثنتى عشرة عينا ، أما سمعت أنه استعان ربه ليهلك فرعون وأهله فابتلعهم اليم . . . أما سمعت كيف أحيا عيسى الموتى . . . وهذه كلها معجزات ليس فى طاقة البشر أن يأتى بها ولكنها أعمالُ ربك يتمها على يد رسله ، وهو الذى أنطق يا سيدى النار كما رأيت ، فآمن بالذى دعوتك إليه والذى أمرت به النار ، فإن عصيتنى فإن الله يعذبك عذاباً أليماً .

فقام الموبد فأعلن طاعته للذى بعثه الله وصدقته النار ، ثم سافر إلى فارس .

* * *

واجتمع الملك بعد ذلك بمزدك فقال له : إن نوشروان منذ سمع قول موبد فارس قد أخذ يميل إليك وهو يريد أن يعلن إيمانه برسالتك وأن يندم ويتوب عما فات من كفره ، وإنى أرى الناس متعلقة به ملتفة حوله فإذا رأوه آمن آمنوا بك إطاعة لأمره ، وسيراً على هداه ، فسرّ هذا القول مزدك وقال للملك : إنى شفيع لنوشروان لدى النار وهى تشفع له عند يزدان ؛ فقال الملك : إنك تسدى إلىّ جميلا لا أنساه ، فهو ولدى وهو وارث عرشى ، وهو فوق ذلك على رأس الجيش والناس تحبه ، وستنام الفتنة بإيمانه ، فان أحداً لن يجد عذراً للكفر بدينك مادام هو يحميه . . وخرج مزدك وهو يوصى قباد بأن يهدى ابنه ، فاستمهله أسبوعا ليزف إليه بشرى دخول نوشروان فى دينه .

وفى نهاية الأسبوع قص قباد على مزدك أن نوشروان رأى فى منامه ناراً تسرع إليه تكاد تلتهمه ، فجزع فإذا برجل جميل الصورة يأتى فيمنعه منها ، وقد سأله نوشروان ماذا تقصد النار بى ، قال إنها غاضبة عليك لأنك كذبتها . ثم أخبر الملك مزدك أن نوشروان عازم على الذهاب لبيت النار ، حاملا المسك والعود والعنبر ، وسيقف على خدمة البيت ثلاثة أيام ، مذكياً النار مسبحاً يزدان ، ولكنه يخاف إن هو أعلن رأيه وكانت أنصار دينك قلة فى البلد أن تشيع الفتنة ، ويضطرب الأمن ، ولذا فانه يرى أن يعرف بالدقة عدد أنصارك هنا وفى الأقاليم ، حتى يقدم على إعلان الدين الجديد وهو بصير بالعواقب ، وأرى أن تعد سجلا تكتب فيه أسماء من آمنوا بك ، فإنه يريد أن يعرف عددهم ومدى قوتهم فراقت الفكرة لمزدك وكتب سجلا بأسماء أنصاره وأودعه قصر الملك .

وبعد أسبوع قابل الملك مزدك فقال له : إن نوشروان سر سروراً عظيما عندما رأى سجل أنصارك وعلم أن عددهم إثنى عشر ألفاً ، فقد أيقن أن هذا العدد كاف لحفظ الأمن ولنشر الدين بحد السيف ، وكان يخشى أن يقل عددهم عن خمسة آلاف فيضطر إلى إرجاء إعلان دخوله فى الدين الجديد . وقد اتفقت معه على أن تكون علامة إعلانه المزدكية أن يقرع الطبل من برج القصر . وقرع الطبل وعلم مزدك أن أقوى رجل فى الدولة قد اعتنق مبادئه ، وأنه قد أصبح ذا شوكة وأن مذهبه سيفرض على الناس فرضاً .

* * *

وفى الصباح ذهب إلى القصر فقابل الملك ونوشران فقدم له هذا الهدايا والتحف ورجاه أن يغفر له سابق هفوته . ثم قال للملك ولمزدك : إن الأمر

بيدكما ، فأولكما ملك إيران وثانيكما نبيها ، فاذا شئتما أن أعمل على نشر هذا الدين الجديد فامنحانى من السلطان مايكفل طاعة الناس لى . قالا : لك ماتشاء . قال : فالرأى أن يبعث مزدك إلى أنصاره فى الأقاليم يدعوهم للحضور هنا بعد ثلاثة أشهر وذلك لكى أكسوهم وأمدهم بالسلاح وأستعين بهم على الجهاد فى سبيل يزدان .

وتم الاتفاق على أن يحضر الأنصار من شتى البلاد فى اليوم الموعود وأن تقام لهم وليمة كبيرة إظهاراً لمبدأ المساواة والإخاء ثم يدعون بعد ذلك إلى الشراب الفاخر ثم يذهبون زرافات إلى القصر الثالث ليأخذوا أكسيتهم وأسلحتهم وخيولهم .

وجاء الإثنى عشر ألف مزدكى فوجدوا الموائد قد أعدت فى جناح من القصر فجلسوا يأكلون ويسمرون ، وكان نوشروان حفياً بهم ، ثم دعاهم إلى الدخول فى قاعات الشراب فدارت عليهم الكؤوس سبع مرات . ودخل وهم يشربون مائتا خادم يحملون أثواب الحرير والكتان ، فأمرهم نوشروان بالذهاب إلى الجناح الثالث حيث توزع الأكسية . ثم أمر فقسم المدعوون جماعات من ثلاثين رجلا وساق كل جماعة إلى حيث الكساء والسلاح . وكان قد أمر أربعمائة من الجنود الأشداء بأن يحفروا فى الميدان حفرا كثيرة ، وأن يدعوا مايخرج منها من التراب بجوارها ، وأمر بأن لايخرج أحد من هؤلاء الجنود خارج الميدان . . .

ودخل المزدكية جماعة جماعة فقادهم حرس نوشروان إلى هذه الحفر فا ودعوا فيها أحياء وقد أقيموا فيها على رؤوسهم ثم غطوا بالتراب حتى صدورهم .وظهرت أرجلهم تتأرجح فى الهواء كأنها جذوع النخل الخاوية .

وصعد نوشران إلى قاعة العرش حيث كان أبوه ومزدك ، فروى لمزدك

ما أعده لرجاله من كرم الضيافة وماهم عليه من سرور بعد أن أكلوا وشربوا ولبسوا ، وطلب إليه أن يطل عليهم وهم فى الميدان فى أزهى حلة لبسوها .

فخرج مزدك فأبصر أرجلا تتأرجح فى الهواء ، فجبهه نوشروان بنظره وقال: ها يانبينا قد ألبست المزدكية الكسوة التى يستحقون ، أما أنت ، فعلى هذا المرتفع الذى أقيم فى وسط الميدان ، ستلقى كساءك ، إنك دجال مخادع كما قلت لك أول مرة لقيتك فيها ، وقد جئت لتقضى على ثروات الناس وتستبيح نساءهم وتهدم ما أتى به زردشت من قواعد المدنية والعمران ، ثم يخلو لك الجو فتجلس على عرش إيران الخربة كما يجلس البوم على أطلال القصور .

وساقه الجند إلى حيث حفرة أعدت له وسط الميـدان ، فدفن حياً ، ورأسه فى التراب .

والتفت نوشروان إلى أبيه فقال له : آن يا أبت لك أن تقبع فى قصرك فإن ضعفك هو الذى أدى إلى أن تقع هذه الفوضى المدمرة فى البلاد ، فمن الخير لك ولها أن تبعد عن حكمها حتى تهدأ الأحوال وتعاد النظم إلى سابق عهدها أيام جدنا أردشير . ثم أمر ففتحت أبواب الميدان ليتاح للناس أن يروا المصير الذى لقيته زمرة الفساد ، وأمر بجمع النبـلاء ورجال الدين فوعدهم باصلاح حالهم وإعادة أموالهم إليهم ورد نسائهم إلى بيوتهم ، وحكم إيران بعد ذلك فكان عهده أزهى عهودها .

***

قال ملكشاه : أحسنت يا نظام الملك فيما رويت وإن عليك أن تعمل على إبادة جماعة بامير أو أن يعودوا إلى الإسلام ، أما أنا فلن أغمد هذا السيف حتى أنشر دين محمد كما أنزله الله .

وكان الليل قد انتصف فقام السلطان وانصرف الوزير والعظماء فذهب كل إلى بيته .

(سياست نامه ٤٤)

٢

العجوز والرجلان

ذهب رجلان إلى عجوز وقالا لها : إنا نستودعك هذا المال ، على أن تعطيه لنا إذا جئنا معاً نطلبه . وبعد فترة جاء أحدهما وطلب المال من العجوز وقال لها إن صاحبه قد قتل ، فإن لصوصاً هاجموهما في الطريق ، فقتلوه . وصدقت العجوز كلام الرجل فأعادت إليه المال .

ثم جاء الثاني عند العجوز وطلب المال ، فقالت إن صاحبك قال إنك قُتلت وقد أعطيته الوديعة ، فليس لك شيء عندي .

فذهب الرجل إلى الحاكم وشكا العجوز ، لأنها امتنعت عن تسليم ماله له ، ففكر الحاكم طويلا ثم قال :

هذه المرأة لم تُقصر ، وقد اشترطها عليها أن تعطيكما الوديعة إذا جئتما معاً ، فاذهب واحضر صاحبك ، وطالباها برد الوديعة !

(جامع الحكايات)

٣

الملك الساهر

قال نظام الملك مخاطباً السلطان ملكشاه :

وعلى الملك أن يتحرى سلوك عماله ، وألا يتوانى فى تقصى سيرهم ، ليتأكد من نزاهتهم ، ومن رعاية الأمانة التى عهد بها إليهم ، والثقة التى أولاهم إياها . وعلى العمال أن يسيروا فى الناس بالحسنى ، وألا يطالبوا الحرّاث بالأموال قبل أن تؤتى الأرض ثمارها ، وإلا اضطر الحراث أن يبيع معجلا مالا علم له بمقداره وقدره ، فيبيع بالثمن البخس جهده المضنى . ثم على العمال أن يعاونوا الحراثين إذا احتاجوا إلى البذور أو المواشى ، فإن من يعن الحراث على إنتاج الخيرات التى تنبتها الأرض يُعن الشعب على عيشه ، ويوفر له غذاءه ؛ وحرام على الحكومة وعلى الناس أن يتركوا قطعة من الأرض بوراً ، فإن من يعمر أرض الله يخدم دينه ووطنه ونفسه ، ومن ير أرضاً صالحة للزرع ولا يعمرها يغضب الله والوطن والملك . فإذا سار العمال هذه السيرة فى الحراثين سعدت المملكة ، وكثرت خيراتها ، وأمن الناس شر الفاقة والجوع والموت ، إذا ما جفت الأنهار وانقطعت الأمطار ووقع القحط العظيم .

ألم تر يا مولاى إلى قباذ وقد جف الزرع فى عهده سبع سنين ، فلم تنتج

الأرض خلالها حبة واحدة ، فكانت شدة لا مخرج منها ، فاستطاع بما لدى عماله من الخيرات المخزونة أن يوفر لشعبه الغـذاء طوال السنوات الشداد ؛ فقد أمرهم ببيع ما لديهم من مخزون الحبوب بأثمان رخيصة ، وسهر على عدالة التوزيع بين الناس ، فلم يمت من إيران فرد واحد بسبب القحط .

وعلى الملك أن لا يتهاون مطلقاً في مراقبة هؤلاء العمال ، وإذا رأى أن أحدهم استولى من حرّاث على أكثر مما ينبغي عليه دفعـه ، رد ما اغتصب إليه ، حتى يعلم الناس أن العدل قائم وإن جار العمال . وإذا كان للعامل المغتصب مالٌ أخذ منه أضعاف ما اغتصب من الرعية ؛ وقد يرى الملك نفسه في حل من أن ينتزع جميع أموال العامل الظالم ، ليعلم الشعب أن الظلم مرتعه وخيم . وأما إذا كان العامل قد قصر تقصيراً يسيراً ، فإن على الملك أن يقوّمه ويصلحه ويجازيه حسب مسؤوليته .

وأما إشراف الملك على الوزير وحكام الأقاليم فإنه أكثر وجوباً وأبعد أثراً ، لأن أخطاء هؤلاء تحسب على الملك نفسه ، وتنسب إليه وإلى حكومته . ولذا وجب أن يكون الوزير والحاكم من ذوي العدل وإصالة الرأي ؛ ووجب أن يكون الملك يقظاً محاسباً .

وكم أعجبني منظرك وسلوكك مني يا مولاي يوم جئتني ، وقد أمسك كميك رجلان يشكوان إليك ظلم والى بلدهما ، وكانت الدموع تترقرق في عينيك وأنت تقول : كيف يكون حالي غداً عنـد الله إذا طولبت بحقوق المسلمين ، وقد قلدتك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا الموقف ؟ وكم أسعدني إنصافهما عمـلا بأمرك وعدلك يا مولاي . وأنا أسوق إليك قصة الوزير رَسْت رَوش الذى وزره الملك بهرام كور فلم يرع النزاهة في حكمه ، فطغى وبغى وتكبر ، ولـكن انظر كيف كانت عاقبته .

وأنت تعلم يا مولاى أن بهرام كور قد اندفع فى نزق الشباب فترك شئون الملك وانصرف إلى الصيد والنساء والشراب ، وأقام مقامه أميراً ضعيفاً لم يكن يستطيع أن يعارض للوزير رست روش رأياً أو يعصى له أمراً . وقد استغله رست روش أقبح استغلال ؟ وصور له أن ما تبديه الحكومة من الشفقة بالناس قد أفسد خلقهم ، وأطمع فى الولاة أشرارهم ، وأن الأمر إذا لم يتدارك بالحزم ويؤخذ بالشدة لا تحمد عواقبه ، فالواجب أن لا ندع على قيد الحياة مفسداً ، وأن لا نترك لغنيهم ما يثير الغرور فى نفسه فيخرج علينا ، ولنستحي نساءهم ولنذبح أولادهم ، حتى لا يبق لأحد منهم سلطان . وامتلأت السجون بالأشراف . وخلت القصور من ساكنيها ، وولّى كثير من الأمراء فراراً من إيران ، وقد ملئوا من ظلم الوزير رعباً . ونظر رست روش حوله ، فإذا سلطانه يمتد على الشعب وحكومته ، وإذا به يرى باب الإثراء مفتوحاً على مصراعيه ، له ولذويه ، فأخذ يمنح الحرية لمن سجنهم الأمير الذى كان يشغل مكان الملك ، على أن يمنحوه ضياعهم وأموالهم ثمناً لحريتهم ، وأخذ ينهب ويسلب كما يشاء ، وكلما أرادت الحكومة القيام بمشروع امتلأت جيوبه وعمرت خزائنه بالرشوة المستورة والرشوة المفضوحة ، حتى أصبح ترفه حديث الناس فى إيران وغير إيران .

وظل الوزير على هذه السياسة الهدامة سنين عديدة ، حتى افتقر الشعب ، وتحلل روحه ، واختلت الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكومين ، وخرجت من بيوت الأشراف التحف النادرة ، والخيول المطهمة ، والجوارى الحسان ، وكل ما لدى الناس من الخيرات ، لتدخل كلها فى بيت الوزير رست روش .

وكان لملك إيران منافس يقف له بالمرصاد ، فاتصل به الوزير الخائن ، ليخلع الأسرة الساسانية وليلى هو العرش ، فسارع العدو ملبياً

دعوته وأغار على إيران . كل هذا وبهرام كور غافل عن أمر نفسه وبلاده .

وأفاق الملك من غفلته وأمر بتهيئة الجيش ، والتوسيع على رجاله ، لتقوى روحهم وتشتد عزيمتهم ؛ ولكن خازن المال وجد خزينة الدولة خاوية ، وافتقد وزير الحرب الأشراف والنبلاء وهم القادة فلم يجد منهم أحداً : منهم المسجون ، ومنهم من هاجر ومنهم من قُتل . ونظر بهرام فاذا إيران يخيم عليها الفقر ، ويفت فى عضدها البؤس واليأس . فسأل ماذا دهى المال وأفنى الرجال ؟ . فلم يجرؤ أحد أن يذكر له ما جرته سياسة الوزير على الدولة من الدمار والفناء . . . وبات الملك ليله ساهراً يفكر فى قلعته المتداعية وعدوه يقترب . . . ولم يكد الصبح يتنفس حتى كان ممتطياً صهوة جواده الأشهب وسط الصحراء . هناك فى الفضاء الذى لا يُحد أبصر ناراً فوق تل فاتجه إليها ؛ وهناك رأى قطيعاً من الأغنام ورأى خيمة على بابها كلب مصلوب ! وجلس الملك — وهو متنكر — للإفطار مع صاحب الخيمة واستمع إلى الرجل يحدثه عن الكلب المصلوب . قال :

كان لى من قطيع الغنم هذا رزق كبير ، وكنت أعتمد على هذا الكلب فى حمايته ، وكان من القوة بحيث يغلب عشرة ذئاب ، وكنت أثق به حتى أنى حين أضطر إلى السفر ، كنت أتركه ليقود الأغنام إلى حيث ترعى وليعود بها إلى حيث تبيت ، وأنا آمن هادئ البال . ولكنى لاحظت أن القطيع يتناقص ، ولاحظت الكلب فلم أهتد إلى تقصير فى رعايته أو فتور فى واجبه ؛ حتى إذا جاء محصل الخراج وجدت القطيع كله لا يفى بما علىّ من مال ، فأخذه المحصل وصيّرنى راعياً للقطيع الذى كان ملكى بالأمس . وتفرغت لرعاية الأغنام فعلمت ما غاب عنى ، وهو أن الكلب قد وقع فى شباك ذئبة غادرة ماكرة . رأيته معها وأنا أحطب فوق ربوة عالية ، رأيتها

تدنو من القطيع ، ورأيته يهرع لاستقبالها ، ثم أخذ يداعبها حتى إذا بلغ منه الهيام مبلغه انتحى بها ناحية ؛ فلا تلبث الذئبة أن تعود فتفترس أقرب الأغنام إليها وتلتهم من لحمه ما تشاء ، ثم تمضى فى سبيلها ، والكلب ينظر إليها نظرة المتيم الولهان ! وهكذا كان ينقرض القطيع رويداً رويداً ، لأن الكلب غلبته شهوته ففقد أمانته وضاعت رعايته . فرأيت أن أقل ما يجازى به هو أن يُصلب كما ترى جزاء ضعفه وخيانته .

***

عاد الملك إلى العاصمة متفكراً فى هذا الذى رأى وسمع ؛ أليس هو صاحب القطيع الذى ملكه الله على الشعب ليعمر الأرض ؟ أليس وزيره رست روش هو الكلب الذى عهد إليه برعاية الشعب والعناية به ؟ أليس الجشع الذى حمل الوزير على ارتكاب ما ارتكب ، وتضييع ما ضيع من دولته ، هو تلك الذئبة الغادرة ؟

ورأى الملك خزائنه خاوية ، وجيوشه مسرحة ، ورجاله مشردة ، والشعب فى بؤس مقيم ، ولكنه لم يهتد إلى خيانة وزيره كما اهتدى الراعى إلى خيانة كلبه ؛ فان الحاشية كانت تخاف على نفسها من غدر الوزير الماكر الجبار . فأمر أن ترفع إليه التقارير اليومية التى كان الوزير يخفيها ، فإذا به يرى البطش والظلم والبغى ، فأدرك أن ما أصاب شعبه من محن مصدره الوزير وأن عليه إذا أراد أن يعيد للشعب مكانته وثقته بنفسه وبحكامه أن يقتص من رست روش ، فلما دخل عليه ابتدره قائلاً : ماذا جرى لشعبى ، علاه الفقر والهم ، وأقعدته المحن والمظالم ، وماذا انتاب خزائنى أقفرت وكانت بالخير تفيض ؟ أوَليتك لتقتل الناس وتنتهك حرماتهم وتقيد حرياتهم ؟ ولقد

وليتك عامر القلب خاوىَ الوفاض ، وكان هذا تحرك ، فإذا بجاه الوزارة يضلك وإذا بك غنىّ ضال . دخلت بالأمس الوزارة فقيراً عزيزاً وها أنت تخرج اليوم منها ثرياً لا نزاهة فيك .

وحاول رست روش أن يجيب ولكن الكلام لم يواته ، خنقته الدماء البريئة التى سفكها ، والحريات الغالية التى أضاعها ، والأمانة التى خانها . فأمر الملك بسجنه ، وأخذ ينظر شكاوى الناس منه ، ولم يلبث أن علم أن رست روش قد تآمر مع عدوه للغدر به ليظفر بسلطان أوسع ، فأمر بقتله والتمثيل به .

ثم التفت إلى أهل إيران فأصلح أحوالهم ، وتدارك ما فسد من أمورهم ، وأبعد عنهم الوزير الذى أغراه الجشع فخان وطنه وملكه ، كما أبعد الراعى الكلب الذى أنسته الذئبة الغادرة حسن الرعاية .

أما أتباع رست روش من الموظفين فقد عزلوا ، ثم أسند الملك وزارته إلى رجل عرف بالتقوى والنزاهة وحب ملكه ووطنه .

* * *

والآن أعود بك يا مولاى إلى قصة الراعى الذى صلب كلبه ، فإن بهرام عندما سمع منه قصته أخرج من جعبته سهما ورماه أمامه وقال له : لقد أكلت معك وشربت ، ووقفت منك على ما اعتراك من غم ، وما أصابك من خسائر ، وسأعمل على تخفيف ما أصابك ؛ واعلم أنى من حجّاب الملك بهرام كور ، يعرفنى كل عظماء بلاطه ، فخذ هذا السهم معك ، وأره إلى من تقابل فى بلاط الملك ، وعندما يروه سيحضروك إلىّ . وسأعوضك خيراً » .

وبعد أيام قالت زوج الراعى — وقد باتت فى ضيق بعد أن فقد زوجها قطيعه — : قم إلى حيث أمرك هذا الفارس الذى زارنا منذ زمان ، وخذ

معك السهم ، فإن عليه سيماء العز والقوة ، وإن قليلا يعطيه من فضله لكثير لدينا . فخرج الراعي قاصداً زائره الكريم .

وكان الملك قد نبه رجال حاشيته إلى قدوم رجل يحمل سهما من سهامه ، فلم يكد الراعي يريهم السهم حتى رحبوا به وساروا معه إلى الملك ، فلما رآه الراعي ارتعدت فرائصه ، وأرتج عليه ، لأنه لم يعامله بما ينبغي للملوك فقد كان جاهلا شخصيته . وانحنى الرجل على أقدام الملك ، فابتسم هذا وقص على الحاشية قصته ، وقال إنه مستبشر به ، لأنه نبهه من غفلته ، ولفته إلى شئون دولته ، وكانت قصته سبباً في خلاص البلاد من البلاء الذي ألمّ بها زمناً طويلا . ثم أمر بأن تخلع عليه الخلع الملكية ، وأن يعطى سبعمائة رأس من الأغنام ، وأن يعفى من الضرائب .

(سياست نامه ٤)

٤

الحجاج والدرويش

ظهر في بغداد درويش مستجاب الدعوة ، فناداه الحجاج بن يوسف ، وقال له إدع لي بالخير . فقال الدرويش : اللهم اقبض روحه .

فقال الحجاج : بحق الله ما هذا الدعاء ؟

فقال الدرويش : هذا الدعاء خير لك ولكافة المسلمين .

(كلستان)

٥

المرأة

قال نظام الملك للسلطان ملكشاه :

قد سمعت أن السيدات المتحجبات اللاتى لا ذكاء لهن يتدخلن فى شئون الدولة ، ولا دخل لهن فيها ؛ والذى أعرفه يا مولاى أن كل ما نطلبه إلى النساء هو أن ينجبن لنا الأبناء ليبقى النسل الطيب ، وكلما علا أصل السيدة زاد تقدير السلطان لها ، وكلما تشددت فى الحجاب طاب الثناء عليها . وليعلم الملك أن نصائح سيدات القصر مبنية على ما يسمعن ممن لم تخلص نياتهم ، وأنهن لا يرين ما يجرى فى الخارج ، فيتخذن من هؤلاء المفسدين عيوناً ، ويستقين من الصاحبة أو الخادمة أو الخادم الأنبـاء ! ولذا فإن أوامرهن تكون بعيدة عن العدل والصواب ، وهكذا ينفث فى الدولة الفساد . وفى هذا يا مولاى مساس بنفوذك ، وفيه مضرة للشعب ، إذ أن به تختل أمور الدنيا والدين ، فقد تتلف — إذا استمع الحاكم إلى قول امرأته — أحوال الناس وتسفك دماء عظمائهم .

وإن أنت أنعمت النظر فى التاريخ يا مولاى وجدت أنه ما من مرة وقع السلطان فيها تحت تأثير المرأة إلا حل فى دولته الفســاد والفتنة وصنوف الشر . ولن أطيل عليك فى حديثى عن سوء أثر تدخل المرأة فى شئون الدولة ، فهذه قضية مشهورة والشواهد عليها كثيرة ، وهى قديمة قدم الإنسان ،

منذ مس آدم الضرحين استمع إلى قول أمنا حواء ! ومنذ أجيال لقيت المملكة التى تحكمها ألواناً من الشر ، زهقت فيها أرواح الألوف من الترك والفرس ، لأن كيكاوس الملك خضع لامرأته سوذبه ، فكان ما كان من شر أعوذ بالله من أن توقعنا النساء فيه ، فى هذه الأيام التى اتسعت فيها مملكتنا ، وأصبحت كعبة القصاد .

كانت سوذبه امرأة جميلة ، وقد وقع كيكاوس فى حبائلها ، لأنه شيخ كبير ولأنها زوج لعوب فاتنة ، فسيطرت عليه حتى أصبح لا يقضى أمراً بغير مشورتها . وكان للملك ولد من زوجه الأولى ، إسمه سياوخش ، عهد بتربيته إلى رستم القائد المشهور ، وكان إذ ذاك والياً على سيستان . وشب سياوخش بطلا فذاع صيته وتحدث بفتوته الناس؛ وبلغ مسامع سوذبه أنه ذو جمال رائع فمالت إليه واشتاقت إلى رؤياه ولقياه ، فأوحت إلى كيكاوس أن يدعو ابنه لجواره ، ليستعين به فى عمله ، وليمتع نفسه بالنظر إليه . فصدق الملك نصحها وبعث إلى ولده فجاء المدائن حيث استقبله الشعب أروع استقبال .

وكانت سوذبه مشوقة إلى مقابلة سياوخش فطلبت من الملك أن يأمره بالدخول فى الجناح المخصص لها ليرى إخوته ، وكانت امرأة فاسدة الخلق قبيحة السيرة ، وكان سياوخش يسمع عن قصص غرامها ويكظم غيظه منها ، فلما طلب إليه الملك أن يدخل جناحها أحس أن أمراً يدبر له فى الخفاء ، فرجا والده أن لا يدخل وأن تخرج إخوته لتسلمن عليه ، ولكن الملك لم يوافقه على رأيه وأمره بالدخول فدخل طاعة له .

ولم يكد سياوخش يدخل حتى أسرعت سوذبه إليه واحتضنته بذراعيها رواودته عن نفسه فدفعها مستعصماً وخرج . . . ودخل الملك عند زوجه

فوجدها مضطربة غاضبة ، فسألها فاتهمت ابنه بأنه ضمها إلى صدره فدفعته ونهرته وأمرته بالخروج طرداً . . .

وغضب الملك فخرج إلى حيث ابنه وسأله فى عنف عما كان منه فقال : هى راودتنى عن نفسى فدفعتها عنى وفررت منها . قال الملك : النار تحكم بيننا يا بُنى ، إن النار أحرقتك فأنت كاذب وهى من الصادقين ، وإن كانت عليك برداً وسلاماً فأنت صادق وهى من الكاذبين .

وأقيم حفل الابتهال وأشعلت النار فى وسط الميدان ، وصعد لهيبها حتى علا قمم الجبال ، واصطف قادة الجيش ورجال الدين على الجانبين انتظاراً لما تحكم به النار ؛ وجاء سياوخش راكباً فرسه « شب رنك » فاقتحم النار وخرج منها من غير سوء ؛ فصلى الناس ودعوا ربهم وجمع الموابذة الحطب المتخلف من الحفل وبعثوا به إلى بيوت النار فى أطراف إيران ، تبركاً وتقرباً من الله ؛ وأدرك الملك براءة ولده وخيانة زوجه ، فدخل القصر غاضباً حانقاً ولكنها استطاعت بخداعها ومكرها أن تجعل غضبه فرحاً وحنقه رضا ، فعفا عنها ونسى ما كان منها . . . ثم أمر بأن يولى ابنه إمارة بلخ ترضية له . . .

خرج سياوخش من النار وكان يظن أن الملك سيقتل سوذبه جزاء خيانتها وكذبها فلما رأى ما رأى من تسامح والده معها لم يستطع صبراً على البقاء فى المملكة وأخذ يفكر فى بلد يلجأ إليه .

وكان لأفراسياب ملك الترك وزير عاقل اسمه ويران ، وقد علم هذا الوزير قصة الأمير الإيرانى فاتصل به وحبب إليه الالتجاء إلى توران ، فهاجر . وهناك استقبله أفراسياب أجمل استقبال ، وزوجه من ابنته ، واختصه بحبه ، وأصبح لا يعقد أمراً فى بلاده من غير مشورة سياوخش .

وكان لملك الترك ولد ضعيف الهمة ، سقيم الرأى ، مريض النفس اسمه

كرسفز ، وقد رحب بسياوخش أول الأمر ولـكنه حين رأى مكانته فى هبوط ومكانة زوج أخته فى صعود ولمس مابينهما من فوارق ، فى الفروسية ورجاحة الرأى وبعد النظر ، حنق عليه أشد الحنق وأخذ يتحين الفرص ليوقع بينه وبين والده . وقد استطاع أن يتهم سياوخش بتهمة قبيحة عند أفراسياب فأهاجه فأمر بقتله فقتلوه ، وهكذا قتل ملك الترك أمير إيران وبطلها سياوخش .

وبلغت الأنبـاء إيران وعلم الناس أن دم أميرهم قد أريق فى بلاد الترك ، فغضبت أرواح الأبطال ودوّى اللحن الحزين فى الأسماع . أما رستم ، والى سيستان ، ومربى سياوخش ، فإنه لم يكد يسمع بالنبأ حتى امتطى صهوة جواده وسار قدُماً نحو المدائن فلما بلغها اتجه نحو قصر الملك فدخل غير مستأذن وصعد إلى جناح سوذبه فدخل غرفتها فجذبها من شعرها وساقها إلى الميدان فقطعها بسيفه إرباً إرباً . ثم رفع العلم الـكاويانى وتقدم الجيش واتجه به نحو بلاد الترك لمحاربة ملـكهم ؛ ودامت الحرب بين الشعبين سنوات قتل فيها آلاف من الترك والفرس .

كل هذا لأن كيكاوس كان ضعيفاً أمام زوجه سوذبه فأسلمها زمام نفسه .

* * *

ولو تتبعت يا مولاى تاريخ العظماء لما وجدت أحدهم استودع امرأة سراً أو اتخذها مشيرة . وانظر يامولاى إلى الإسكندر وقد هزم دارا واستولى على ملـكه فأراد بعض رجاله أن يزوجوه من ابنة الملك المهزوم ، فأشـاروا عليه بدخول « الحريم » حيث ابنة دارا التى ذاع حديث جمالها وعذوبتها ، وبجانبها بنات الأشراف وكلهن على جانب عظيم من الجمـال ، فقال الإسكندر :

لقد هزمنا رجالهم فلا تسيطر علينا نساؤهم! ومضى فى الغزو نحو الهند ولم يدخل « حريم » دارا .

* * *

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « شاوروهن وخالفوهن » . وجاء فى التاريخ أنه حين اشتدت على الرسول الكريم وطأة المرض كان بجواره السيدتان عائشة وحفصة عليهما السلام ، فسألتاه عمن يصلى بالناس أثناء مرضه فقال : أبو بكر . فأعادتا سؤالهما فقال : أبو بكر . قالت عائشة لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل ضعيف رقيق القلب ، وإنه أقرب الصحابة إليك ، فإذا رأى مكانك من الناس شاغراً غلبه البكاء فتضيع صلاته وصلاة الناس ، فالأجدر بإمامتهم عمر فإنه قوى رابط الجأش . فغضب النبي عليه الصلاة والسلام وقال ما معناه ، مثلكما كمثل يوسف وكرسف ، وإنى لن أسمع لكما رأياً وقد أمرت بما فيه خير المسلمين ، إذهبا إلى أبى بكر وقولا له يؤم الناس للصلاة . هذا مع ما كان لعائشة من رأى وعلم ، فما بالك يا مولاى بسائر النساء !

قال ملكشاه : وما قصة يوسف هذه ياأبا الحسن ؟ فقال نظام الملك :

* * *

كان ذلك أيام بنى إسرائيل ، وقد قيل إن الله تعالى يستجيب ثلاث دعوات لمن يقضى أربعين سنة يعبد الله ولا يرتكب كبيرة أو صغيرة . وكان يوسف رجلاً متعبداً زاهداً يخشى الله ولا يسىء إلى أحد : وكان يعيش مع زوجه كرسف وأولاده فى قناعة وسعادة ؛ وقد آن ليوسف أن يدعو ربه

ثلاث دعوات ، ولم يجد غير زوجه مشيرة بالذى يدعو ، فإن صلاحها من صلاحه ، وليس أصدق منها ناصحاً له .

فلما سألها قالت : ليس لى فى هذه الدنيا سواك ، وأنت منى نور العين ، ويطيب بصحبتى عيشك ، فادع ربك أن يجعل لى جمالا ليس مثله جمال حتى أدخل على نفسك السرور كلما وقع نظرك علىّ . فدعا يوسف ربه أن يمنح كرسف جمالاً ليس لواحدة من بنات حواء ، فصارت .

وأبصرت كرسف وجهها ذات يوم فى المرآة فإذا هى كالملاك الكريم جمالاً ورقة ، وألفت نفسها زوجاً لهذا الزاهد المتعبد القانع الذى لا تجد عنده غير خبز قفار ، والذى لا يعرف إلى كسب الحياة سبيلاً ؛ ورأت أن جمالها جدير بملك عظيم يوفر لها أسباب السعادة الحقة ، ويغدق عليها من الخيرات والنعم ، ويهبها من اللآلىء والجواهر ما يزدان به جمالها . هكذا وسوس لها الشيطان فأخذت تؤنب زوجها على فقره وتقاعده عن الكسب ، وأهملت أطفالها . . .

وأحس يوسف ما فى زوجه من صلف وغرور ، ورآها تهمل بيتها وأولادها ولا تستمع لنصحه ، فرفع إلى السماء رأسه ودعا ربه أن يعاقب كرسف فيجعلها دبة تهيم على وجهها ، فصارت . وأخذت الدبة تحوم حول البيت وتلتصق بجدرانه والدمع من عينيها ينهمر ؛ واضطر يوسف أن يرعى أولاده وبيته بنفسه ، وأصبح لا يقدر على تأدية الصلاة فى وقتها ، ورأى أطفاله وقد امتلأت قلوبهم حزناً لفقد أمهم ، فرفع رأسه إلى السماء مرة ثالثة ، ودعا ربه أن يعيد كرسف كما كانت من قبل ، فعادت إلى حالتها الأولى ؛ وانتهت الدعوات الثلاث . وأصبح يوسف وقد ضاع عليه نسك أربعين سنة ! كل هذا لأنه اتخذ من زوجه مشيراً .

* * *

وأختتم حديثى بأن أذكّر مولاى بالآية الكريمة : « الرجال قوّامون على النساء » . فلا تستمع لمشورتهن يا مولاى ، واجعل من ابنك بركيارق خلفاً لك ، يحافظ على دولتك ويخلد اسمك ، فإن له من كبر سنه ، ووفرة تجاربه ومرانه على فن الحكم ما يؤهله لوراثة ملكك العظيم .

وحذار يا مولاى من الإنصات لتركان خاتون ، فإنها تريد أن تغريك بجمالها وفتنتها وأن تحملك على جعل ولاية العهد لطفلها منك ، وتبعد ولدك بركيارق عن عرشك ، فاجعل العهد له ، واعقلها يا مولاى وتوكل .

(سياست نامه ٤٣)

٦

لص فى بيت درويش

سطا لص على بيت درويش بالليل ، وأخذ يفتش لعله يجد شيئاً يسرقه ، وكان الدرويش مستيقظاً واللص ينقب فصاح به :

إنى فى ضوء النهار لا أجد فى هذا البيت شيئاً فماذا تريد أن تجد فى ظلمة الليل البهيم ؟

(گلستان)

٧

جعفر البرمكى

اجتمع لسليمان بن عبد الملك من أسباب الملك ما لم يكن لأحد من آبائه ، وقد جلس يوماً ومن حوله حاشيته وكأن بنفسه أن يقول إن الله وهبه من الملك ما وهب لسليمان الحكيم ، إلا أنه لا تذعن له الطير ولا تطيعه الجن . وبينا هو يفكر فى هذا إذ بادره أحد خاصته بقوله : إن الخليفة مع ما أتيح له من عظمة الملك وأبهة السلطان ينقصه شيء واحد هو زينة البلاط عند الملوك السابقين . قال سليمان : أفصح . قال الرجل : ينقصك يا مولاى وزير من أبناء الوزراء الأقدمين تزدان به مملكتك وتستعين به فى إدارتها .

قال الخليفة : ولكن أين أجد هذا الوزير ؟

قال المتحدث : إنه ببلخ واسمه جعفر بن برمك (الجد) وهو من نسل البرامكة الذين وزروا للساسانيين منذ أيام أردشير بن بابك ، وقد زالت عنهم الوزارة حين ذهب ملك آل ساسان ، وهم يتوارثون — منذ الفتح العربى لبلادهم — القوامة على بيت نار النوبهار ، كما يتوارثون كتباً فى أصول الحكم وواجبات الوزير ، وضعها الآباء وزاد فيها الأبناء ما جد من تجاربهم ، ولست أرى من هو أجدر من جعفر هذا بوزارتك ، والرأى لمولاى .

وراقت الفكرة لسليمان فأمر والى بلخ أن ينادى جعفر بن برمك وأن

يعطيه مائة ألف دينار ثم يوجهه إلى دمشق . وقوبل البرمكى فى رحلته الطويلة بأروع مظاهر الاستقبال ، فقد شاع أنه ذاهب ليتقلد الوزارة ، وأمر الخليفة باستقباله إستقبالا رسمياً فى البلاط ، فاجتمع الأمراء ورؤساء القبائل وذوو الرأى لمقابلته ، فلما بلغ جعفر القصر فُتحت له الأبواب ، ولم يكد يدخل قاعة العرش حتى وقف الحاضرون تحية وإجلالا ، ولكن الخليفة تجهم ، وأمر بطرده شر طردة ، وقد استشاط غضباً وقال : خذوه فغلوه . وساقه الحرس خارج القاعة ، وظل الخليفة عابساً .

وأما الحاضرون فكأن على رؤسهم الطير ؛ إلى أن حان وقت الشراب ، ولعبت الكؤوس بالرؤوس ، وتفتحت أسارير سليمان ، وأمنَ الحاضرون غضبه .

قال أحدهم : بعثتَ يامولاى فى طلب جعفر ، وأحطته فى رحلته بعطفك ورعايتك ، وجلست تنتظر حضوره ، وهو شرف لم تمنحه أحداً من قبل ، ثم طردته من مجلسك وأنت غاضب عليه فهلا شرحت لنا الحكمة فى ذلك يامولاى ؟

قال الخليفة : إنه دخل بلاطنا وفى يده السم ، ولولا أنه من أبناء الوزراء السابقين ، وقد أمرنا بإحضاره من بلد قصىّ لأمرنا بقتله صبراً (١) .

قال صاحبنا : إذا أذن مولاى ذهبت عنده لأستبين الأمر فإنى أرى فيه سراً ، فأذن الخليفة له . . .

وأجاب جعفر سائله بأنه يحمل السم فى خاتمه ولكنه سم لايضر حشرة

(١) لم يرد اسم البرامكة أيام الساسانيين فيما نعلم من مصادر تاريخهم . والمعروف أن جعفر البرمكى (الجد) وفد على عبد الملك كطبيب للأمير مسلمة (٨٦/٧٠٥) . وسموا البرامكة من فعل برمكيدن بمعنى المص أى مص السم . أنظر مادة برمك فى : (فرهنك انجمن آراى ناصرى)

حقـيرة فى الأرض وهو لايفكر فى إيذاء مخلوق به ، وقال إنه ورث الخـاتم وما يحتويه عن آبائه الوزراء الذين حملوه لازدراد ما فيه من السم إذا اقتضى الحال ذلك ، فكثيراً ما كان الملوك يغضبون عليهم فيصادرون أموالهم ، ويعرضون للبوار أرواحهم ، قال : وحين ناداني الخليفة خشيت أن يطلب إلىّ مالا قبل لى به ، وخفت أن يأمر بتعذيبى عذاباً لا قدرة لى على احتماله ، فلبست الخاتم لأسرع إلى موت بابتلاع سمه قبل العذاب الأليم . . .

وعلم الخليفة سر حمل جعفر السم فى خاتمه ، فراقت له الفكرة ورضى عنه ، وأمر بأن يُرسل إليه حصان من خيوله المطهمة وبأن يحضر راكباً إلى البلاط . . . واستقبله أجمل استقبال ، ثم أمر بإعداد غرفة الشراب فزينت بالذهب والفضة وفرشت بالبُسط المنسوجة من الذهب الخالص ، وبدت القاعة فى أبهى حلة ظهرت بها .

ثم انتقل الخليفة ووزيره الجديد والحاشية إليها وأخذوا فى الشراب .

ولما اطمأن جعفر إلى الخليفة سأله : كيف عرفت يا مولاى أنى أحمل السم مع أن أحداً لم يفطن لذلك ؟

فقال الخليفة : إن معى سـواراً هو أثمن كنوزى جميعاً ، لا أنفصل عنه ، ولا هو ينفك عنى ، وهو عشر صدفات تشبه الجزع (نوع من الصدف) وليست منه ، وجدته فى خزانة أحد الملوك ، فإذا أُدخل فى غرفتى طعام أو شراب مسموم ، أو دخل من يحمل سماً ، اضـطربت الصدفات وفقدت هدوءها ، وبفضل هذا السـوار عرفت أنك تحمل السم ، وقد كان يزداد اضطراب صدفاته كلما تقدمت منى ، ثم نزع الخليفة السـوار من يده وأراه لجعفر ، وسأله إذا كان قد رأى فى حياته شيئاً أعجب مما يرى .

فقال البرمكى : نعم يا مولاى ، ما رأيت مع حاكم طبرستان . . .

* * *

عرجت على آمد وأنا فى الطريق إلى دمشق عملاً بأمر مولاى فاستقبلنى حاكمها وأنزلنى ضيفاً عليه ، وأحاطنى بالرعاية والعناية ، وقد سألنى إذا كنت أرغب فى رحلة بحرية ترويحاً عن النفس من مشقة الطريق فوافقت ، وركبنا السفن ومعنا أهل الموسيقى والغناء ، ومن حولنا السقاة يديرون كؤوس الشراب ، والجو صحو جميل ، وكنا فى سفينة واحدة وهو قريب منى ، فرأيت فى إصبعه خاتماً لم أر أجمل من الفص الذى يزدان به ، فحدقت فيه طويلا ، فلما لاحظ ذلك انتزعه من إصبعه وقدمه هدية لى ، وخشيت أن تكون إطالة نظرى فيه قد أحرجته ، فرددته شاكراً معتذراً ، فألح فألححت فى الاعتذار عن القبول ، فقال إن ما يخرج من يدى هدية لا يعود إليها ، فأكدت اعتذارى فأخذ الخاتم من يدى وألقاه فى أليم ! فصحت آسفاً وقلت : لو عرفت أنك ملقيه فى البحر لأخذته . قال : إنك حين أطلت النظر فيه علمت أنه راق فى نظرك أكثر مما يروق لى . وها أنت تحزن لقراره فى قاع البحر ، ولكنى واجد الوسيلة لإخراجه ورده إليك . ثم أمر خادماً بأن يعود إلى البر وأن يذهب إلى القصر ويطلب من الخازن أن يعطيه الصندوق الفضى الذى فى الخزانة ، وأمر ربان السفينة التى كنا بها بالتمهل . وعاد الخادم يحمل صندوقاً فضياً صغيراً ، فتناوله الحاكم وأخرج من منطقته مفتاحاً ففتح به الصندوق وأخرج منه سمكة من الذهب الخالص ، وألقاها فى الماء ، وبعد لحظة عادت السمكة وفى فمها الخاتم المفقود . . . ثم نزع جعفر الخاتم من إصبعه وأراه للخليفة ، فأعجب هذا به ورده إليه وقال إن ذكرى كرم هذا الوالى لا يجوز أن تضيع . . .

ولبث شأن البرامكة فى الارتفاع حتى قلب لهم الدهر ظهر المجن فزالت دولتهم . وما قصدت بهذا الحديث أن أعرض على مولاى من شهير قصصهم ما يعرف وإنما قصدت ذكر القواعد اللازمة لاختيار الوزير الكفء الذى يعلم واجبه نحو الدولة ، وما القصص إلا ليسهل على مولاى القراءة ، وفقك الله وأرشدك إلى ما فيه صلاح الدولة والدين .

(سياست نامه ٤٢)

٨

النصح الآثم

سمعت أن ملكا أمر بقتل أسير ، فأخذ هذا يشتم الملك ، فإنه وقد يئس من حياته ، لم يقم وزناً لقدر أحد ، وإذا يئس الانسان طال لسانه ؛ وكان الملك لا يعرف لغة الأسير ، فسأل ماذا يقول ، فقال وزير طيب ، إنه يقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ، فأشفق الملك عليه وعفا عنه .

وكان فى الحضرة وزير خبيث فقال : لا يليق بنا نحن الوزراء أن نكذب على الملك ، إن الأسير يشتم الملك ويطيل لسانه فى سبه .

فتجهم وجه الملك وقال لهذا الوزير الخبيث : إن كذب صاحبك أحب إلىّ من صدقك ، فقد قصد الخير وقصدت الشر ؛ ولم يعدل الملك عن عفوه .

(كلستان)

٩

المعتصم والخياط والمملوك

حدثتك يامولاى عما ينبغى على السلطان من رقابة وزرائه وولاته ، واليوم أسعد بالتحدث إليك عن موقفك من المماليك الأتراك الذين كثروا فى الدولة منذ أيام الخليفة المعتصم . فقد كان هذا الخليفة يحبهم ويؤثرهم على سائر مواليه ، واتسع نفوذهم حتى لقى الناس منهم كثيراً من المظالم والآلام ، وقد ازداد عددهم فى عهدك السعيد يا مولاى ، ولا عجب فإن انضمام القبائل التركية للدوحة السلجوقية الوارفة الظلال كان أمراً لا بد منه ، والمماليك الترك هم خير من يدافع عن حدود البلاد ، وخير من يفتح ويغزو ، وبفضلهم تتسع الدولة ويكثر عدد المسلمين فيعتز الإسلام ، وقد أشرت على مولاى باتباع سياسة والده العظيم الب ارسلان فى استغلال قوتهم وحبهم للنظام وميلهم إلى الحرب والفروسية وتعصبهم الشديد للدين الحنيف ، فتكون الحدود لهم مستقراً ليحموها ويدفعوا أعداءنا عنها ، وليسهل قيامهم منها للغزو والجهاد فى سبيل الله .

وعلى الملك الصالح أن يراقبهم أدق المراقبة ، وأن يسأل عن سلوكهم ، وأن لا يتوانى فى توقيع أشد العقوبات على من يعتدى منهم على الناس ، فإنهم طغاة فى الحرب ، بغاة فى السلم ، لا يقف فى سبيل شهواتهم قانون أو سلطان .

فإذا وجدوا الملك يقظاً فى محاسبتهم خافوا بأسه وشدة مراسه وخضعوا لما يفرض عليهم من نظم .

هكذا كانت سيرة المعتصم منهم ، فإنه بقدر تدليله لهم والإسراف فى منحهم وتمييزهم على بقية مواليه ، لم يكن يتوانى عن الضرب على أيديهم إذا ما ابتدروا أحداً باعتداء . ولعلك سمعت عن مملوك بغداد وماجرى منه وكيف عاقبه الخليفة المعتصم .

* * *

فقد حدث أن أميراً تركياً من المماليك — وكثيراً ما كان المعتصم يرفع عبيده إلى هذه المرتبة — طلب من نائبه أن يدله على تاجر يقرضه خمسمائة دينار على أن يردها إليه حين « يفرجها الكريم » ، ويأتى ريع الإقطاع . قال الوكيل إنى أعرف تاجراً متوسط الحال لديه المبلغ الذى تريد ، فإذا ناداه الأمير وأجلسه فى مكان الشرف من مجلسه ، وطلب منه أن يقرضه هذا المال فإنه لا يتأخر . فبعث الأمير رسوله للتاجر وتقابل معه فى قصره مقابلة ودية ، وقد أخذ الأمير فى الثناء على التاجر ووصفه بالأمانة والتقوى وحسن السمعة وقال إنه لثقته به يفكر فى أن يشركه فى مشروعاته المالية ، وطلب إليه أن يعتبر قصره بيتاً له وأن يعامله كما يعامل الأخ أخاه . وجاء وقت الغداء فأجلسه الأمير على يمينه وأخذ يختار له ما طاب من كل صنف ، ويلح عليه أن يأكل وأحاطه بكل إجلال ومجاملة .

وانتهى الغداء وانصرفت حاشية الأمير فبقى مع التاجر على انفراد فحدثه عن سبب استدعائه وأخبره أنه يعرف أثرياء بغداد جميعاً ، وأنهم يحبونه ويرغبون فى أن يشركهم فى أعماله ، قال : « وأنا أستطيع أن أقترض منهم

عشرة آلاف دينار ، إلا أنى آثرتك فأقرضنى ألف دينار وأنا أردها إليك بعد خمسة أشهر ومعها كسوة كاملة » . فلم يستطع التاجر أن يرفض ولو أنه اعتذر عن عدم وجود المبلغ كله ، إلا أنه يستطيع دفع ستمائة دينار أدخرها مع الزمن الطويل المرير ، فقبل الأمير هذا القدر وأعطاه إيصالاً وتعهداً برده مع الكسوة ، ثم انصرف التاجر .

ومضت الأشهر الخمسة وكثر تردد التاجر على الأمير ، فلم يبد هذا أى إشارة على تذكره الدين الذى اقترض . . . ويئس التاجر من التلميح فكتب التماساً وقدمه للأمير فأجابه بأنه متذكر ، وأنه أمر نوابه بدفعه . . . وانتظر صاحبنا على غير جدوى . . . ولجأ إلى الوسطاء من أصدقاء الأمير فذهبت جهوده وجهودهم عبثاً . . . فهرع إلى القضاء ، وبذل القاضى كل ما يملك من وسيلة ، ولكنه فشل فى أن يرد للتاجر درهماً من دينه . . . فيئس الرجل وأسلم أمره لله .

وذهب إلى الجامع يصلى ويبث ربه شكواه ، ورفع يديه للسماء ودعى ربه أن يظله بحمايته وأن يرد إليه حقوقه . . . وسمعه درويش بجانبه فسأله عن أمره فقص عليه قصته .

قال الدرويش : هدىء من روعك يا صاحبى ولا تيأس فإن الحق فى هذا العهد لا يضيع ، إذهب إلى « حى الجامع » وادخل الدكان الصغير المجاور للباب ، تجد خياطاً متواضعاً ، فاستأذن وقص عليه قصتك ، يحضر إليك مالك من الأمير .

فذهب التاجر ، ولقى الخياط وقص عليه قضيته ، فأمر هذا أحد الصبيان أن يترك الإبرة وأن يذهب إلى قصر الأمير ويخبره أن الخياط يطلب إليه أن يرد مال التاجر الذى استدانه فقد انقضى ميعاده . وبقى التاجر متعجباً مما

يرى ويسمع ، وعاد صبي الخياط فأخبره أن الأمير حاضر ليرد للتاجر ماله وليعتذر إليه عن تأخير السداد . وبعد لحظات جاء الأمير فنزل عن حصانه وقبّلَ يد الخياط ، وحيا التاجر وأعطاه السمائة دينار معتذراً ، وانصرف ...

لم يدر بخلد التاجر أنه سيصل إلى حقه ، ولم يلجأ إلى الخياط إلا تسلية ومحاولة يأس ، فلما رأى ما رأى عرض عليه أن يأخذ مائة دينار ، فنظر إليه الخياط مؤاخذاً وربت على كتفه معتذراً . . . فعاد التاجر يلح وأعاد الخياط الاعتذار والرفض . . . وذهب التاجر إلى بيته يتفكر فيمن يكون هذا الخياط وما شأنه ؟ وفى اليوم التالى أحضر حملا مشوياً وأصنافاً من الحلوى وسار إلى الخياط ، ورجاه أن يأكل مما أعدّ له ، فطيب هذا خاطره ، وتناول بعض الطعام ثم أعطى باقيه للصبيان . . .

ثم سأل التاجر الخياط عن نفوذه وسر سطوته على الأمير مع عجز القاضى عن تحقيق العدالة حياله ، فسكت الخياط قليلا ثم قال إن لهذا قصة سأقصها عليك : قال

* * *

كان ببغداد أمير تركى ذو سطوة وجبروت ، ولم يكن أحد يجرؤ على مراجعته أو نقد أعماله ، وكان الحكام يخشون بأسه فلا ينصتون لشاكٍ منه ، فطغى التركى وبغى وتكبر . . . وحدث أن كنتُ فى الدكان ذات يوم ، وإذا بالأمير يجر سيدة من شعرها ، والسيدة تصرخ ، وكلما رأت جماعة منا فى السوق رفعت صوتها بأنها سيدة شريفة وزوجة ذات عفاف ، وأن الأمير يخطفها لأمر فى نفسه ، وأن زوجها يطلقها إذا عرف أن الأمير اغتصبها غصباً . . . وعلا صراخ المرأة ، وأتباع الأمير من حوله يبعثون الرعب فى

قلوب الناس ، فلم يجرؤ أحد منا على تخليصها من يدىْ هذا الوحش الثائر . . . فسرنا وراءه حتى إذا دخل القصر ، بعثنا إليه بأنا نريد مقابلته ملتمسين سراح هذه السيدة ، فرد علينا بخشونة وأمر جنده بطردنا وضربنا فانصرفنا أو قل ولينا منهم فراراً . . .

ذهبت إلى بيتى فلم أستطع النوم ، وكان من عادتى أن أؤذن لصلاة الفجر فى الجامع المجاور لى ، وأنت تعلم أن السكران إذا اشتدت عليه وطأة السكر غلبه النوم ، فإذا أفاق لم يدر فى أى ساعة يكون ، فجال بخاطرى أن أصعد المئذنة وأنادى لصلاة الفجر ، قبل ميعاده ، عسى أن يحسب الأمير أن الفجر لاح فيترك للسيدة حريتها فتعود إلى بيتها . . . فصعدت على المئذنة ورفعت صوتى مؤذناً ، فى غير وقت الأذان . . .

كان الخليفة المعتصم مستيقظاً وقتـذاك ، فلما سمع الأذان فى غير الأوان غضب ، فنادى حاجبه فأمره أن يحضر هـذا المؤذن الجرىء ، الذى يعبث بالدين وببيت الله . . . فجاء الحاجب وساقنى غاضباً إلى الخليفة الذى لم يكد يرانى حتى نهرنى مستنكراً ما أتيت من وزر ثقيل . . .

قلت فليهدأ مولاى وليسمع قصتى ، فلما سمع القصة ووقف على قصدى من الأذان فى غير الأوان ، هدأت نفسه وشكرنى وقربنى منه . . . ثم أمر الحراس أن يذهبوا إلى قصر الأمير ، وأن يحضروه مكبلا ، وأن يخرجوا السيدة ويذهبوا بها إلى بيتها وأن يعتذروا لزوجها عن اعتداء الأمير ، وأن يبلغوه أن الخليفة مقتص منه قصاصاً عادلا . . .

وجاء الأمير فلم يستطع أن يدحض ما روى عنه ، فأمر الخليفة بأن يوضع فى كيس وأن يضرب بالعصى ، فظلوا يضربونه حتى دقت عظامه وصارت هشيماً . . . ثم ألقوه فى دجلة . وأمر الخليفة بإذاعة قصته بين الناس ليعلموا

أن الأمراء الترك المماليك ، مهما بلغوا من القوة والبأس ، فإن الخليفة حامى المسلمين والقائم على تنفيذ شريعة الله قادر على أن يخضعهم ويذيقهم من العذاب بما يأثمون . . .

وأما أنا فقد علت مكانتى عند الخليفة ، وحمد لى شجاعتى فى الحق وإيمانى بالله ، وطلب إلىّ أن أؤذن كلما رأيت ظلماً لم أستطع له دفعاً . . . ولذا أذعن يا صاحبى الأمير الذى أخذ نقودك ، عندما طلبت منه أن يرد دينك إليك ، ولولا ذلك لأذّنت ولدفع الثمن غالياً من حياته . . .

***

هكذا يا مولاى ينبغى أن يكون سلوك الملك من مماليكه ، وإذا كان كان هذا سلوك المعتصم الذى سبقك بأكثر من قرنين ، حين كان الأتراك قلة وكان وجودهم بوصفهم موالى للخليفة ، فما بالك وأنت اليوم فى دولة تقوم على الأتراك من القبائل التى انضمت إلى أسرتك الرفيعة . . .

إن على الملك الصالح أن لا يفرق بين أمير وصغير فى مملكته ، فكلهم رعاياه ، وكلهم يشارك فى عظمة الدولة ، وقد يكون نصيب الصغير فى مجدها أعظم من نصيب الأمير . . . فلا تدعن أحداً منهم يعلو فى الأرض ، ولا تصبرن على ضيم أصاب أحد رعاياك . . . واضرب على يد من يستكبر على أخيه ، إذا لعب برأسه جاه المنصب أو ما خلعت عليه من نعم . . . فإن الواحد القهار أقامك فينا لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأما كيف يكون ذلك فحسبك من سيرة المعتصم مرشداً ودليلاً .

(سياست نامه ٧)

١٠

العجوز والوالى وأنوشروان

رأى السلاجقة حين صار الأمر كله إليهم فى إيران ، أن يقسموها إلى إقطاعات ، وأن يولى رؤساء القبائل التركية إدارتها ، على أن يعمل هؤلاء الرؤساء على تعمير إقطاعاتهم وجباية الأموال المستحقة عليها ، وليس لهم أن يأخذوا من الناس غير الضرائب المفروضة ، وعليهم جبايتها بالحسنى ، وإذا دفع الحرّاث ما عليه من الضريبة فمن حقه أن يكون آمناً على نفسه وأمواله ونسائه وعياله .

ولكى يتوفر للشعب الضمان فى أن السلطان يرعاه ، إذا مسه من أصحاب الإقطاع ضر ، وجب أن لا يحول أحدهم دون دخول الأفراد القصر لرفع مظلمة أو إثبات حالة . وإذا خالف أحد أصحاب الإقطاعات ذلك نزع منه إقطاعه ، وناله عقاب شديد ، ليكون مثلاً لغيره وعظة للآخرين . وعلى الناس أن يعلموا أن الإقطاعات وساكنيها ملك للسلطان ، وأن أصحاب الإقطاعات والحكام حراس عليها من قبله .

وأنا أحدثك يا مولاى عن أنوشروان وسيرته فى الرعية ويقظته فى حمايتها من جور العمال . فقد ولى أنوشروان العرش شاباً فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان أبوه قباد متساهلا مع الحكام ، منغمساً فى اللهو ، حتى فشت فى

أيامه آراء مزدك التى قلبت فى إيران الأوضاع فأفسدتها كما قدمت يا مولاى .

وكان أنوشروان عادلا بطبعه منذ صباه ، يحق الحق ويدحض الباطل ، فلما قضى على والده ، وخلص له العرش ، جمع حكام الأقاليم والأشراف ونصحهم بالرفق بالرعية ، وإقامة العدل بين الناس ، وأوعدهم بعزل من يخرج على نصحه ، وبقتل من يعتدى على أحد رعاياه . . . وانصرف الحكام إلى ولاياتهم ، فساروا سيرتهم الأولى ، يظلمون الشعب ، ولا يعبأون بنصح الملك ، واستمر الحال على هذا المنوال خمس سنين ، وأنوشروان يعلم مايرتكبونه من أساليب الجور وفنون الظلم ؛ ولكنه اتبع الصبر والمداراة .

وكان أقوى هؤلاء الحكام وأكثرهم ثراء وجاهاً قائد ولاية آذربيجان ، وقد أراد هذا ، أن ينشىء لنفسه حديقة ومنزلاً صغيراً فى ضواحى البلد الذى يقيم به ، وكان جزء من الجهة التى اختارها مملوكاً لعجوز فقيرة .

كانت العجوز قانعة بما تملك ، فقد كان كافياً لأن تدفع من غلته الضريبة التى يتقاضاها الملك ، وأجر الحراث الذى يعمل فى المزرعة ، ويتبقى بعد ذلك ما يكفل لها أربعة أرغفة كل يوم ، فكانت تعطى رغيفاً لبائعى اللبن والخضروات بدلا عما تأخذه منهما ، ورغيفاً للبقال نظير ما تأخذ من الزيت لتضىء سراجها ، ورغيفاً تأكله فى غدائها ورغيفاً فى عشائها . أما ملابسها فكانت تأتيها صدقة من جيرانها ؛ وكانت تؤثر الوحدة ، فهى حبيسة كوخها لا تخرج منه إلا لحاجة ماسة ، ولا تكلم أحداً إلا كارهة ، ولكنها مع هذا الفقر كانت قريرة العين ، شاكرة لربها جزيل نعمه عليها .

وأراد الحاكم أن يأخذ مزرعتها الصغيرة والكوخ الذى تسكنه ، فأرسل إليها من يبلغها رغبته وأنه يسره شراء كوخها والمزرعة ، فأجابت بأنه يسرها

أكثر أن تحتفظ بهما ، لأنها لا تملك من حطام الدنيا غيرها ، ولأنها تأكل من المزرعة ومن ذا الذى يبيع مورد رزقه ؟

قال رسل الحاكم : إنا سندفع لك ثمن ما نأخذ وإن شئت نعطيك مزرعة بدلاً من مزرعتك ؛ فاعتذرت العجوز بأنها ورثت مزرعتها عن والديها ، وأن ماء الرى قريب منها ، وأنها سعيدة بجيرانها لأنهم يحترمون بؤسها ، وهذه كلها ميزات لا تتوافر فى مزرعة أخرى ، وناشدت رسل الحاكم أن يتركوا مزرعتها .

وعلم الحاكم أنها رفضت أن تعطيه المزرعة والكوخ ، فلم يتوان فى استغلال قوته ، فأخذ المزرعة عنوة وهدم الكوخ وأقام السور حول الحديقة الغناء التى غرسها !

أما العجوز فقد أبصرت نفسها ولا بيت يأويها ولا مزرعة تأكل منها ، وألفت الحاكم قد غضب عليها ، فلم يبق لها حام ولا راع ، فراحت تتوسل إليه أن يعطيها ثمن ما غصب أو بدلاً مما أخذ ، وكلما خرج إلى الصيد انتظرته فى الطريق ورفعت بالشكوى والتوسل صوتها ، فكأن فى آذانه وقراً فهو أصم لا يسمع ؛ والتمست من ضباطه أن يبلغوه شكواها ، قالوا إنا فاعلون ، سخرية منها .

ومضى عامان والعجوز فى فقر مدقع ، تأكل من فتات الناس وتعيش على عطفهم ، وكل لحظة تشتكى إلى الله حتى كادت تيأس من رحمته . . . إلى أن مر بخاطرها ذات يوم أن فى « المدائن » ملكاً هو ملك الملوك ، وهو فوق حاكم آذربيجان ، وهو قادر على أن يرد لها مزرعتها أو ثمنها أو مزرعة بدلاً منها ، ولكن كيف تسمعه شكواها ؟

فعزمت على السير إلى المدائن ، ولم تطلع أحداً على عزمها ، ثم مشت قدماً ،

يضنيها بعدُ الشقة ، ويشد أزرها الأمل ، حتى بلغت المدائن وأشرفت على قصر الملك . ولـكن كيف السبيل إلى دخول هذا القصر ومقابلة سيده ، ومن قبلُ كانت عاجزة عن دخول قصر حاكم آذربيجان الذى هو خادم للملك ؟

ورأت أن من الخير أن تلجأ إلى مكان قريب من القصر ، وأن تسأل عن موعد خروج الملك للصيد ، وأن تتقـدم إليه بقضيتها حين تقابله وجهاً لوجه .

ويشاء القدر أن يخرج الملك إلى الصيد وفى حاشيته حكام الولايات جميعاً ؛ فذهبت العجوز واختبأت وراء شجرة ، وحين بلغ أنوشروان مكانها ، بادرته — ولما ينزل عن حصانه — قائلة : إذا كنت ملك الدنيا فارحم التى جاءتك تشكو ظلم واليك ! فأدرك أنوشروان أن أمراً ذا بال حملها على أن تلجأ إليه وأن تسلك هذا السبيل الصعب لمقابلته ، فاقترب منها ، وهدأ روعها ثم استمع إليها . . . واغرورقت بالدمع عيناه ثم قال : خففى عن نفسك ياأماه فإن قضيتك بالأمس هى قضية الملك منذ اليوم . . .

ثم أمر أحد حجابه أن يتولى أمر العجوز البائسة وأن يحملها على حصانه إلى رئيس القرية لتقيم في بيته ، حتى تستريح ، وأمر بأن تعطى كل يوم عشرة أمنانٍ من الخبز ومناً من اللحم ، وخمس قطع من الذهب كل شهر . . .

وعاد الملك من الصيد وهو يفـكر فى شكوى العجوز وكيف يحققها .

اختار أنوشروان غلاماً ذكياً من خدمه وكلفه أن يذهب إلى آذربيجان وأن يسأل عن قصة العجوز . . . وأظهر أمام الحكام — ومنهم حاكم آذربيجان — أنه أوفد الغلام ليطلعه على حال المدن والقرى ومقـدار ما ينتظر من غلات . . .

وجاء الغلام فأخبر مليكه أن العجوز الشاكية سيدة من أسرة نبيلة ، كانت تعيش مع زوجها وبنيها ، ولكنهم ماتوا جميعاً وتركوها وحيدة . . . وأناخ عليها الدهر فستها الفاقة ولم يبق لها إلا المزرعة التى كانت تأكل منها ، والكوخ الذى تأوى إليه .

وقضى أنو شروان نهاره وليله يفكر فى العقوبة التى يجازى بها هذا الحاكم الظالم ، وفى اليوم التالى أمر حاجبه بأن يطلب إلى والى آذربيجان أن ينتظر حتى يناديه الملك ، وأن يدع بقية الأشراف يدخلون القاعة حيث جلس الموابذة .

ودخل الملك القاعة فقام الجميع إجلالاً ، وحين جلس أشار إليهم بالجلوس فجلسوا ، ثم قال : أريد أن أسألكم أسئلة وأن تجيبونى عليها بضمائركم ، فقالوا : سمعاً وطاعة . قال : كم يملك حاكم آذربيجان من النقود ؟ قالوا مليونين من الدنانير فوق حاجته . وكم له من الآنية والأدوات ؟ له منها ما يساوى خمسمائة ألف دينار ، وهى من الذهب والفضة . وكم له من الضياع والعقار ؟ ليس فى خراسان والعراق وفارس وآذربيجان مدينة أو ناحية إلا وله فيها القصور والأربطة وغيرها مما يستغل .

وكم له من الخيل والبغال ؟ ثلاثون ألفاً .

وكم له من الغنم ؟ مئتا ألف .

وكم له من الجمال ؟ ثلاثون ألفاً .

وكم له من العبيد ؟ له ألف وسبعمائة غلام ما بين تركى ورومى وحبشى ، وله أربعمائة جارية .

قال الملك : الرجل الذى عنده هذه الثروة والذى تجدون على مائدته كل يوم عشرين صنفاً من الطعام ، عدا الخراف والحلوى ، بماذا يعاقب إذا اغتصب

رغيفين من الخبز القفار ، هما قوت عجوز ضعيفة من عباد الله الصالحات ؟

فأجابوا جميعاً : إنه يستوجب أشد عقوبة .

فأمر أنو شروان بسلخ حاكم آذربيجان ، وبإعطاء لحمه للكلاب ، وبحشو جلده بالتبن ، وأن يعلق على باب القصر ، ثم أمر بأن ينادى المنادون سبعة أيام بأن من يسلب غيره مالاً ، مهما كان تافهاً ، يلق ما لقى هذا الحاكم الطاغية من عقاب . . .

* * *

والتفت أنو شروان إلى الحكام والأشراف وقال : لأحمين الحمل من الذئب ، ولأقطعن الأيدى التى تتطاول معتدية ، ولأقضين على المفسدين فى الأرض ، ولأعمرنها بالعدل والأمن ، فمن أجل هذا وليت العرش ، ولو كان للقوى أن يفعل بالضعيف ما يشاء ما أمد الله الملوك بتأييد من عنده ليقيموا العدل بين الناس .

ثم أمر بأن تعطى العجوز القصر الذى بناه الحاكم فى مزرعتها وما يتبعه من بساتين وأن تمنح الركائب والنفقات اللازمة لعودتها سالمة إلى بلدها ، ثم ودعها وسألها أن تدعو له فى صلاتها . وأمر بعد ذلك بفتح باب قصره للمظلومين من شعبه ، وقال إن الأمراء والرعية كلاهما شعبى ، ولكن أفراد الرعية يدفعون المال والأمراء يأخذونه ! وينبغى أن تفتح أبواب قصرى للمعطين أكثر من فتحها للآخذين . ...

ولو كانت أبواب القصر مفتوحة أمام المظلومين لما لجأت العجوز إلى الاختباء وراء الشجرة منتظرة ملاقاة ملكها وهو فى رحلة يصطاد . ثم أمر الملك بمد سلسلة من باب القصر إلى قاعة العرش ، بحيث يستطيع طفل فى

السابعة من عمره أن يمسكها بيده ، وتنتهى هذه السلسلة بناقوس يدق فى القاعة ، فاذا أراد متظلم أن يسمع الملك شكواه ، فعليه أن يمسك السلسلة . . .

* * *

وظل الناس يتمتعون بالأمن ، ولم يتلق الملك أى تظلم ، إلى أن كان ذات يوم ، سمع الملك الناقوس فأمر عبدين له بأن يذهبا للباب ويريا من الشا كى . وعاد الرجلان فأخبرا أنو شروان أنهما لم يجدا شاكياً ولكنهما وجدا حماراً ضعيفاً أجرب يحك جسده بحائط القصر فيمس السلسلة فيدق الجرس . فقال أنوشروان ، بل إنه مظلوم جاء يشكو ظلم الإنسان له ، إذهبا إلى السوق ، وانظرا ماذا كان من أمره مع صاحبه . فلما ذهب الخادمان إلى السوق عرفا أن الحمار كان لغسّال فى السوق ، وأنه ظل يستخدمه فى نقل أحمال الملابس عشرين عاماً ، وكان يعلفه ويعتنى به فى هذه المدة ، فلما كبر الحمار وأصبح غير قادر على الحمل ، ولا فائدة فيه ، سرّحه صاحبه . وقد ظل سنة ونصف يخبط فى الطرقات ، ويأكل مما يجود به الخيرون عليه ، ولكنه منذ يومين لم يأكل . . . فعاد الرجلان وأخبرا الملك بالقصة ، فأمرها بإحضار الغسّال ومعه أربعة من أرباب العائلات فى السوق ، فلما جاءوا ، أمر الملك الغسّال ، على مسمع من صحابه ، بأن يعنى بالحمار ما عاش ، فإذا قصر فى رعايته فإنه يقتص له .

(سياست نامه ٥)

١١

الملك والقروى

خرج ملك مع جماعة من خاصته للصيد فى فصل الشتاء ، فأوغلوا فى السير ، وأرخى الليل سدوله ، وهم بعيدون عن المدينة ، فرأوا بيت قروى فاقترح الملك أن يذهبوا إليه ، حتى ينجو من البرد .

فقال أحد الوزراء :

إنه لا يليق بقدر الملوك أن يلجأوا إلى بيت قروى صغير ، إنا سنقيم خيامنا هنا ونوقد النيران ، فنبيت ونتدفأ .

وسمع القروى بهذا الكلام ، فجهز ما لديه من طعام وحمله إلى السلطان ، وأدى له التحية ثم قال :

إن قدر السلطان لا ينزل بهذا القدر الضئيل من الطعام ، ولكنهم أرادوا أن لا يرتفع قدر القروى .

فتأثر الملك بقوله ، وانتقل إلى بيته فقضى ليله فيه ، وفى الصباح منحه النعم والخلع ، فقال وهو يسير فى ركابه :

لم يتضع قدرك بتشريفك بيت القروى ، يا مولاى .

بل إن عمامة القروى بلغت الشمس ، لأنك مددته بظالك .

(كلستان)

١٢

أسد الدولة وقاضى نيسابور

قال نظام الملك :

وعلى الملك أن يكون واسع الحيلة ، ذكى الفؤاد ، وأن لا يقف جامداً أمام ما يعرض عليه من أمور ، ومن حق الرعية عليه أن يسهر على شئونها ، وأن يقضى الليالى متفكراً فى قضاياها ، وأنا أقص على مولاى ما عمله أسد الدولة مع قاضى نيسابور ؛ قال :

كان أسد الدولة من أكثر سلاطين الديالمة حرصاً على إقامة العدل بين الناس ورعاية مصالحهم ، وقد حدث أن كتب إليه أحد المخبرين يقول :

مولاى ، لم أكد أسير مائتى خطوة لتنفيذ ما أمرت به ، حتى قابلت شاباً شاحب اللون ، مغبر الوجه ، مثخناً بالجراح ، فابتدرنى بالتحية فحييته ، وسألته عن حاله فقال : « إنى أنتظر رفيقاً يصاحبنى إلى بلد فيها ملك عادل وقاض لا يظلم » ، قلت : « أتريد ملكاً أقرب إلى العدل من أسد الدولة وقاضياً أعدل من قاضى نيسابور ؟ » فقال نعم ، ولو كان أسد الدولة عادلاً ، مهتماً بأمر رعيته ، لاستقام قاضيه ، ولكنه لم يفعل ، فهو غير عادل . . .

قلت حدثنى عن أمرك لعلك تقصر بالحديث الطريق فقال :

إعلم أنى ابن فلان التاجر العظيم ، وكان بيتنا فى حى كذا ، ويعرف أهل

نيسابور ما ترك أبى من الثراء ، وما خلف من خدم وعبيد . . . وقد ورثت عنه هذه الثروة الطائلة وأنا شاب ، فعبثت ما شاء شبابى وفتوتى أن أعبث ، حتى أصبت بداء عضال يئست من برئى منه ، فنذرت للرحمن نذرا ، أن أهب للفقراء جانباً من ثروتى ، وأن أعتق موالىَّ ، وأن أذهب حاجاً ثم أنضم إلى المجاهدين فى سبيل الله ، إذا مَنّ ربى علىّ بالشفاء . . . وشفيت فوفيت بالنذر ، فأعتقت عبيدى نساء ورجالاً ، وأعطيتهم من المال ما يكفيهم ، وزوجت من أراد الزواج منهم . . . ثم بعت أملاكى فوهبت جانباً للفقراء وبقى لدى خمسون ألف دينار . . . ورأيت أن من الخير أن أكتفى بثلاثين ألفاً أنفقها فى رحلتى ، وأن أودع العشرين ألفاً الباقية عند رجل أمين ، فاشتريت إبريقين من النحاس وضعت فى كل واحد منهما عشرة آلاف دينار ذهباً ، ورأيت أن أصلح الناس فى البلد لرعاية أمانتى هو القاضى ، فذهبت إليه ، وأوقفته على قصدى ، واستودعته الإبريقين ، وسلمت عليه وانصرفت . . .

أديت فريضة الحج ، ثم سرت من الحجاز إلى حيث الفرقة التى تحارب الكفار فانضممت إليها ، وذهبنا لحرب الروم : فوقعت فى الأسر ، بعد أن أثخنت فى الجهاد بالجراح ، ومرض ملك الروم ، وخاف أن يلقى ربه ظالما فأفرج عن أسرى المسلمين ، فأخذت أتكسب عيشى بشق النفس ، وسرت من بلد إلى بلد حتى بلغت نيسابور بعد غيبة عشر سنوات .... وقابلت القاضى فأنكرنى . . . ولم أكن أستطيع أن ألجأ إلى أقاربى وصحبى بعد أن طالت غيبتى عنهم ، وقد تغير حالى مما لقيت من ذل الفقر وقسوة الأيام . . . فكنت أبيت فى المسجد وأتوارى عن الناس فى النهار . . . لا أطيل عليك الحديث : ذهبت للقاضى المرة تلو المرة ، فكان ينهرنى ويطردنى ويتهمنى

بالجنون ، فلم أر بداً من أن أعرض عليه خمسة آلاف دينار مما استودعته ، فأبى . . . فعرضت عليه إبريقاً بما فيه ، وذكّرته بعذاب الله يوم القيامة فكأن فى آذانه وقراً . . . ثم التفت إلىّ وقال : إذا لم ترجع عن التحدث إلىّ فى هذا فإنى مخاصمك أمام القضاء وسترى أن جِنّه بك . . فخرجت من عنده يائساً ، وأدركت أنه لن يرد إلىّ ذهبى . . . وذكرت المثل السائر : إذا فسد اللحم أصلحوه بالملح ولكن ما الحيلة إذا الملح فسد ! وختم يا مولاى حديثه بقوله : لو ان أسد الدولة كان عادلا لما يئستُ من تحصيل ذهبي . .

* * *

فلما اطلع أسد الدولة على هذا الخطاب أمر بإحضار الشاب فسمع منه شكواه فقصها كما رويت له فى الخطاب من قبل ، وحار السلطان فى هذه القضية ، فإنه كان يخشى معاقبة القاضى قبل التثبت من صحة أقوال الشاب ، وقد عُرف القاضى بالتقوى وسعة العلم ، فأخذ يفكر فى طريقة يثبت بها خيانة قاضيه .

وفى ذلك الوقت كان القاضى سعيداً ، وأخذ يحدث نفسه بأن الشاب صاحب المال لن يمتد به العمر بعد ما لقى من هوان الفقر وخيبة الأمل ، وقد أثخنته الحرب جراحاً وهدمت كيانه . . . وأن المال الذى وقع غنيمة فى يده لا سبيل إلى استرداده . . .

ودق باب القاضى فإذا برسول من أسد الدولة يناديه . . . فلما ذهب عند السلطان قال هذا له :

أتدرى لماذا أرسلت فى طلبك ؟ إنى يتراءى إلىّ شبح الموت ، ومهما يكن فأنا أخشى أن يسلط الله علىّ ملكاً ينتزع منى ملكى كما انتزعته أنا من

قبل ، أو أن يدركنى الموت الذى لا مفر منه ، وأنا أخشى الأمرين جميعاً ، فلتجعل كلامى إليك سراً لا يطلع عليه معنا غير ربك ذى الجلال . إن لدى من الأموال ما لا يحصى ، وأريد أن أحفظها عندك ، فإذا كان أن غُيِّبْتُ عن العرش لأحد الأمرين ، ووجدتَ ولدى ونسائى فى يوم ذى مسغبة ، فاعطهم المال الذى لديك ، وليكن الله شاهداً على ما بيننا وهو نعم المولى ونعم الوكيل .

ثم أمره السلطان بأن يبنى فى بيته خزانة كبيرة تسع الصناديق التى تحوى اللآلئ والفضة ، وأعطاه مائتى دينار ليجهز بها البناء . . .

وبعد أيام عاد القاضى ليخبر السلطان أنه أعد المكان ، فشكره وامتدح همته وشهامته واستقامته ، ثم قال : إنى أعددت مليونا وخمسمائة ألف دينار ، وما يساوى خمسمائة ألف دينار من الأمتعة التى سيشتريها التجار لتحتفظ بثمنها ذهباً . . . وإنى حاضر عندك غداً لأرى المكان الذى أعددته لحفظ المال . . . ورأى السلطان منزل القاضى وأعجب بحسن إعداده لمكان النقود ، وأمره أن يحضر يوم الثلاثاء ليدبر نقل الأموال إلى الدار .

* * *

عاد السلطان إلى قصره فأمر خازنه ان يعد مائة وأربعين إبريقاً وأن يملأها ذهباً ، وثلاثة أكياس من اللؤلؤ ، وكأساً من الذهب ملؤه الياقوت الأحمر وآخر ملؤه اللعل ، وثالثاً ملؤه الفيروز ، وأن توضع هذه أمام الأباريق . وجاء القاضى فى الموعد المحدد ، فأراه أسد الدولة الأموال ، وقال عليك أن تنقلها فى منتصف الليل فى يوم الإثنين من الأسبوع المقبل . . .

أما القاضى فانصرف إلى بيته مسروراً ، يؤمل فى الثروة التى تكون له

عند ما يموت السلطان أو يخلع فيتنكر لأولاده ويستحوذ على أمانتــه التى أودعها لديه بوثيقة من الشرف غير مسطورة . . .

وأما السلطان فقد أمر الشاب أن يذهب إلى القاضى ، وأن يطالب بأمانته عنده ، وأن يعود إليه . . .

* * *

دق باب القاضى فإذا بالشاب المريض يحييه ، ويطلب الإبريقين اللذين أودعهما عنده قبل السفر ويهدده برفع الأمر للسلطان . . . ويضحك القاضى ويرى أن الخير أن تظل نيته خافية على السلطان ، فيشترى مائة وأربعين إبريقاً مع كؤوس ملؤها الجواهر بإبريقين ! فيأخذ الشاب من يده ويجلسه بجواره ، ويطيب خاطره ، ويعتذر له بأنه لم يعرفه فى المرات الأولى . . . ويسلمه الإبريقين بما فيهما . . .

ويعود الشاب إلى السلطان ويخبره أن القاضى أعطاه الإبريقين بما فيهما من ذهب ، فيتأكد من صحة اتهام الشاب له .

ويأمر أسد الدولة بإحضار القاضى حافىَ القدمين ، عارىَ الرأس ، فجىء به وقد لُفَّ شالُ عمامته على رقبته ، وسحب منه كما تسحب البهائم . . .

ويجرد القاضى من أمواله ، ويعوض الشاب من هذه الأموال بقدر ما لقى من ضيق ، ويطاف بالقاضى فى أسواق المدينة ، ويُنادى فى الناس أن هذا جزاء من أؤتمن نخان .

(سياست نامه ١٢)

١٣

السلطان محمود وقطاع الطريق

واعلم يا مولاى أن على الملك أن يعرف معرفة تامة ، أحوال بلاده ، من أقصاها إلى أقصاها ، وهذه بلا شك مهمة شاقة على ملك أتاح الله له ما أتاح لك من الفتح المبين حتى شملت دولتك بلاداً عدة . . . وهذه البلاد الواسعة تحتاج معرفتهـا إلى فسحة من الوقت ، ووفرة من الذكاء والعناء . . . ألا إن عبء الملك يامولاى أثقل الأعباء طراً ، والملك وإن توفرت له مظاهر الأبهة والجلال فإنه فى الحقيقة مثقل الكاهل بما ألقى عليه ربه من مسئولية الحكم النزيه . . .

وعلى الملك أن لا يعتمد على ولاته فى المحافظة على الأمن ، بل إن عليه أن يشاركهم الرأى فى ذلك ، وأن يرسم لهم خطتهم التى يتبعونها . ألم تر إلى محمود الغزنوى وقد اغرورقت بالدمع عيناه ، حين أتته امرأة تشتكى من عصابة كوج وبلوج التى سطت عليها فجردتها من أموالها ، وهى نازلة فى خان دير كتشكين ، فإنه لم يكن يعرف مكان هـذا الدير ، فلامته وقالت لا تفتح من البلاد إلا بقدر ما تستطيع أن تعرف وتدبر وتنشر الأمن ! إذ كيف يطمع فى فتح العالم ملك لا يعرف بلاده ؟ اغرورقت عينا محمود بالدمع حين أنبته المرأة ولم يغضب ، بل وافق على كلامها وأعطاها من الذهب بقدر ما سرق منها ، ثم كتب إلى واليه فى كرمان أن يتعقب المجرمين ويقتلهم أو يأتى بهم فى الأغلال مصفدين .

فأجابه الوالى بأن كوج وبلوج بلاد تفصلها عن كرمان عوامل جغرافية تعوق سيرَ الجيوش المنظمة ، وتتيح لأهلها الدفاع عن أنفسهم فى قوة ، وقد جلب هؤلاء على الشر والإيذاء ، وهو عن ردهم عن الغواية عاجز ؛ فلما علم محمود هذا ، استعان بالحيلة ليقضى على الأشرار ، وليقيم الأمن والسلام فى دولته .

كتب محمود إلى واليه فى كرمان أن يذهب إلى حدود كوج وبلوج وأن ينتظر بجيشه هناك ، حتى يبعث إليه رسولا لبدء القتال . ثم أوعز لجماعة من التجار الراغبين فى الذهاب إلى يزد ، عن طريق كرمان أن يستعدوا للسفر ، فإنه سيبعث معهم حرساً من جنده الأشداء ، يقونهم شر عصابة كوج وبلوج . . . وسرّ التجار بهذا فأسرعوا فى تهيئة قافلتهم . . . وأعد لهم محمود حرساً من خمسين ومائة فارس على رأسهم أمير تركى ، وقال للأمير : إنزل بإصفهان ، وأعلن من يريد الذهاب إلى كرمان من تجارها بالاستعداد للسير معك ، وأمكث بها عشرة أيام حتى يهيىء التجار حوائجهم ، واشتر من هنـاك عشرة أحمال من التفاح ، وحملها على عشرة جمال ، ثم سر بالقافلة إلى يزد ، فإذا اقتربت من الـكوج فانزل ، ومر بالليل بإحضار أحمال التفاح فأدخلها فى مخيمك واثقب كل تفاحة بإبرة مغموسة فى السم الذى بهذه الزجاجة ، وضع التفاح المسموم فى السلات واجعلها فى مكان ظاهر ، ونبه على حراسك بأن لا تمتد إليه يد أحد منهم .

ففعل القائد ما أمر به السلطان . . .

وسارت القافلة مع حراسها ، وكان لصوص الـكوج قد بثوا فى إصفهان عيونهم ، فراحوا إلى ساداتهم ، وأخبروهم أن قافلة تقوم من إصفهان لم يُر مثلها من قبـل ، فإنها تحوى أكبر عدد من التجار ضمته قافلة ، وفيها من الأموال والبضائع مالا عين رأت ولا أذن سمعت . . . وأن هذه القافلة تسير

فى حراسة جند لا يزيدون على خمسين ومائة فارس . . . وفرح رجال العصابة بما سمعوا ، واستعدوا للهجوم على الفريسة الدسمة ، وأعدوا عدتهم وجمعوا من رجالهم أربعة آلاف رجل . . .

واقتربت القافلة من مكان العصابة ، وأتى حراس الطريق ينبئون الأمير بأن الخطر محدق ؛ إذا هو تقدم ، فإن اللصوص ينتظرون مقدم التجار منذ أيام ، وأن عددهم كبير لا تقوى جماعته على صدهم ، وأن الخير كل الخير فى العودة من حيث أتى . .

* * *

وجاء الليل فجمع الأمير التجار ، وكانت أخبار العصابة قد ترامت إليهم ، فارتعدت فرائصهم ، وظهر عليهم الذعر والهلع ، فطمأنهم الأمير ، وأكد لهم أن السلطان قد عمل على حمايتهم ، وأنه يعرف كيف يدفع عنهم السوء . . . وطلب إلى شجعانهم أن يحملوا أسلحتهم ، وأن يستعدوا للقتال حين يأمرهم ؛ ولكنه أخبرهم أن قطاع الطرق لا يعتدون بالقتل إلا على من يقاومهم ، فعلينا أن لا نقاوم إذا هوجمنا ، بل إننا سنترك البضائع والدواب ونولى الأدبار ، وسأسبقكم أنا ، وننتظر بعيداً عن أموالنا ، إلى أن يهيء الله أمراً ليس فى الحسبان . .

* * *

ودنت الساعة وإذا باللصوص يسدون المنافذ على القافلة ، ويهجمون عليها من ثلاث جهات ، وسيوفهم مسلولة . . . فرجع الأمير وتبعه التجار ، تاركا البضائع نهباً للناهبين . . .

ووجد اللصوص التفاح الإصفهانى معروضاً فى سلاته الجميلة ومحاطاً

بالقطن حتى لا يفسد ، فأخذوا يتخاطفونه ، ويأكلون منه فى نهم أى نهم !

ولم يكد الصبح يتنفس حتى صعد الأمير على ربوة وأطل على مكان القافلة فرأى اللصوص وقد تبعثرت أجسادهم بجوارها ، قتلهم السم الزعاف الذى يحمله تفاح إصفهان .

فصاح الأمير فى رجال القافلة ، فقاموا وقتلوا من بقى من اللصوص وجمعوا أسلحتهم . . .

ثم أرسل الأمير رسولا إلى والى كرمان ، وكان مرابطا بجيشه على حدود بلاد الكوج ، يقول له يأمرك السلطان أن تدخل الكوج والبلوج اليوم ، وأن تفتحها وتقتل رجالها ، وتجمع ما فيها من المال المسروق وتبعثه للسلطان . . . وأن تنادى فى كرمان بأن من سرق منه شيء فليطالب به .

وهكذا نجح محمود فى القضاء على العصابة الخطرة .

(سياست نامه ١٠)

١٤

لقمان وحكمته

سئل لقمان ممن تعلمت الحكمة ؟

قال :

من الجهلاء ، فكلما رأيت عيباً فيهم تجنبته .

(كلستان)

١٥

السلطان محمود والقاضي والرفاء

قال ملكشاه لوزيره : كم كان عظيما هذا السلطان الغزنوى ، إننى معجب به ، راغب فى تقصى أخباره ، فزدنا عنه قصصاً . فقال نظام الملك :

كان محمود جالساً ذات صباح لتفقد شئون رعاياه ، فجاءه شاب كسير الفؤاد وقال : « إنى أودعت القاضي كيساً من الحرير الأخضر به ألفا دينار من الذهب النيسابورى ، وسافرت إلى الهند ، فوقع لى فى الطريق حادث ، حملنى على العودة ، فذهبت إلى القاضي وسألته رد الأمانة ، فأعطانى الكيس الذى استودعته ، ولكنى عند ما فتحته فى بيتى ، وجدت نقداً من النحاس بدلا من دنانير الذهب ، وعدت إلى القاضي أطلب ذهبى ، فأنكر ذلك منى ، وولى عنى غاضباً ؛ فاسمع يا مولاى صوت الذى جاء يشتكى إليك ، خاوى الوفاض ، لا يجد قوت يومه » .

فتأثر السلطان من قول الشاب وأمره بإحضار الكيس فأحضره . وأخذه محمود ، وجعل يقلبه بين يديه فلا يجد علامة على أنه فُتح ، فقال للشاب :

« ساعنى يابنى بالأمر ، وقدأمرت بأن تعطى كل يوم ثلاثة أمنان خبزاً ، ومنا لحماً ، وأن يصرف إليك دينار كل شهر ، إلى أن يتبين الحق فى قضيتك » .

ودخل محمود غرفته ليستريح بعد الغداء ، فوضع الكيس أمامه ، وأخذ يفكر كيف استطاع القاضي أن يبدل الذهب بالنحاس من غير أن يفتح

الكيس ؟ فخال بخاطره أن القاضى قد شق الكيس ، فأخرج ذهبه ووضع النحاس ، ثم بعث به إلى الرفاء فأحكم رفيه .

وكان عند السلطان مقرمة (ستر) جميلة ، موشاة بالذهب ، تغطى بها الوسادة ، فقام بالليل ، وشق المقرمة ، ثم نام ؛ وفى الصباح الباكر خرج للصيد ، رحلة ثلاثة أيام .

وجاء الفراش الخاص لينظف الغرفة ، فوجد المقرمة ممزقة ، فهاله ما رأى وصاح باكياً . وسمعه فراش عجوز فى الديوان فسأله عما أبكاه ، فقال لا أستطيع أن أخبرك عنه ؛ فهدأ العجوز من روعه ، واستوضحه الأمر ، فقال : إن رجلا يحقد علىّ قد دخل القصر خلسة ، وشق مقرمة وسادة السلطان شقاً طوله ذراع ، وسيقتلنى السلطان إذا رآها . فسأله العجوز إذا كان أحد سواه رآها ، فقال كلا . قال العجوز : إذاً فاهدأ بالاً يابنى فإنى واجد ما يفرج كربتك ، وقد خرج السلطان للصيد ، وسيبقى به ثلاثة أيام ، فخذ المقرمة ، واذهب الى حى كذا ، وسل عن رفاءٍ اسمه أحمد ، إعطه إياها يرفها بحيث لا يعرف أحد من أين رُفيت ، وأعطه الأجر الذى يبغى ، فهو أمهر الرفائين فى بلدنا ، وكل أهل هذه الصناعة هنا من صبيانه .

وذهب الفراش إلى أحمد الرفاء ، فأصلح المقرمة إصلاحاً دقيقاً وطلب نصف دينار أجراً ، فأجره الفراش ديناراً كاملاً . وعاد الفراش بالمقرمة إلى القصر هادئ النفس ، قرير العين ، وغطى بها الوسادة ، وكأن شقاً لم يكن بها .

* * *

وعاد السلطان من الرحلة ، ودخل غرفته بعد الغداء ، فألقى على المقرمة نظرةً فوجدها قد رفيت رفياً لم يستطع أن يتبين مكانه ؛ فأمر بإحضار

الفراش فسأله عمن رفاها ! فقــال هذا ، وقد كاد يغشى عليه : إنها لم تــكن ممزقة يامولاى ، وقد كذب الوشاة فادعوا ذلك .

لاتخف أيها الأحمق ، فإني أنا مزقتها لغرض في نفسي ، قل من رفاها .

رفاها رفاء اسمه أحمد يامولاى ، دلني عليه فراش بالقصر .

إذهب وأحضره ، وقل له إن السلطان يريد أن يراك .

وعاد الفراش ومعــه الرفاء ، فلما رأى هذا السلطانَ ارتعدت فرائصه ، فقال له السلطان :

لاتخش شيئاً ياأوستاد (أوسطى) واقترب منى ، أأنت أصلحت المقرمة ؟

نعم يامولاى .

لقد أظهرت مهارة فائقة .

لقد نجحت بفضل ما يصاحب مولاى من التوفيق .

أليس في هذه المدينة من الرفائين من يماثلك ؟

كلا يامولاى .

سأسألك عن أمر أحب أن تصدقنى الإجابة عنه .

ليس أصوب من الحق مع السلطان .

أرفيت هذا العام كيساً من الحرير الأخضر في بيت عظيم ؟

نعم يامولاى ، في بيت قاضى المدينة ، وكافأنى بدينارين .

— فإذا رأيت الـكيس فهل تعرفه ؟

— نعم يامولاى .

فأخرج محمود الـكيس من تحت وسادته وأراه للرفاء فعرفه ، فسأله السلطان عن مكان رفيه ؛ فأراه إياه ؛ وتعجب السلطان من دقة الصناعة .

قال السلطان : فإذا دعت الحاجة فهل تستطيع أن تشهد بذلك أمام القاضى ؟

ولماذا لا أشهد يامولاى .

* * *

وأرسل محمود الغزنوى فى طلب القاضى وصاحب الكيس . فأمر بإدخال القاضى وإبقاء صاحب الكيس مع الرفاء ، خارج القاعة .

فلما دخل القاضى ، حيا السلطان وجلس كعادته . فالتفت هذا إليه وقال :

إنك شيخ كبير وعالم ، وقد وليتك أموال المسلمين ورقابهم ، واعتمدت عليك ، وفى بلادى ألفا رجل أعلم منك ، وهم عاطلون لايعملون شيئاً ، فهل يليق بك أن تخون ، وأن لاتؤد الأمانة وتغتصب أموال غيرك ؟

قال القاضى : مولاى ، ماهذا الكلام ، ماذا عملت ؟

هذا ماعملت أيها الكلب المنافق ، وأراه الكيس قائلا : هذا هو الكيس الذى أؤتمنت عليه فأبدلت ذهبه نحاساً ثم رفيته ، وأعطيته لصاحبه محكم السداد كأنك لم تفعل به شيئاً !

أهكذا تكون سيرتك وديانتك ؟

قال القاضى :

مارأيت هذا الكيس قط ، ولا علم لى بما يقول مولاى .

* * *

فأمر السلطان بإدخال الرفاء وصاحب الكيس وقال : أيها الكذاب الأشر ، هذا هو الرفاء وهذا هو صاحب الكيس ، ومن هنا مزقته ورفيته .

فخجل القاضي وَمُلِّءَ رعباً ، ولم يحر جواباً .

فقال محمود : اقبضوا على هذا الكلب ، واحجزوه حتى يعطي الذهب لصاحبه في التو وإلا ضربت عنقه .

فحملوا القاضي إلى السجن ، نصف ميت ، وطالبوه بالذهب ، فطلب وكيله فدله على مكانه فأحضر هذا ألفين من الدنانير ، فأعطوهم للشاب صاحب الكيس .

وفي اليوم التالي جلس محمود لنظر المظالم فقص على الملأ قصة قاضيه ، ثم أمر بإحضاره وشنقه على شرفة القصر ، على أن تدلى رأسه إلى أسفل ؛ فشفع له العظماء ، لأنه شيخ كبير ، وقاض عالم ، واشترى الرجل نفسه بخمسين ألف دينار ، فأخذوا منه المال ، وعزلوه .

(سياست نامه ١٣)

١٦

الحمد

ماشكوت من الزمان ، ولا برمت بحكم السماء ، إلا حين حفيت قدماى ، ولم أستطع شراء حذاء ، فدخلت جامع الكوفة وأنا ضيق الصدر ، فرأيت رجلاً بلا رجلين ، فحمدت الله وشكرت نعمته عليّ ، وصبرت على ما ابتلاني من حفاء .

(كلستان)

١٧

رقيق أصبح ملكا

قال ملكشاه : زيدني حديثك عن محمود الغزنوى إعجاباً به وبأسرته ، نهلا حدثتنى عن أصل الغزنويين وكيف ملكوا ؟ فقال نظام الملك : إن لهذا قصة طريفة يا مولاى ثم حكى :

كان لدى السامانيين رقيق تركى اسمه الپ تكين ، اشتراه أحمد بن اسماعيل ثم خدم من بعده نصر بن أحمد ، وظل يرقى فى سلك الأرقاء ، حتى بلغ مرتبة الإمارة أيام نوح ، وكان عمره — حين أسند إليه إمارة خراسان ، خمسة وثلاثين عاماً .

وكان الپ تكين هذا شجاعاً ، جسوراً ، مخلصاً لسادته ، محبوباً من جنده ، محباً لهم ، واشتهر فى زمانه بالعدل والحزم فأحبه النـاس ، وقد لبث أميراً لخراسان أكثر من خمسين سنة ، وأثرى فكان يملك من الرقيق آلافاً ؛ وذات مرة اشترى ثلاثين غلاماً . من بينهم سبكتكين .

ودخل الحاجب على الأمير فأنبأه أن أحد رؤساء الخدم (وثاق باشى) قد مات ، وسأله أن ينصب أحد الغلمان مكانه ، وكان سبكتكين واقفاً ، فأشار إليه الپ تكين ، وقال للحاجب : ارفعوا هذا الغلام إلى مرتبة وثاق باشى ؛ فقال الحاجب : أترفعه يا مولاى إلى هذه المرتبة ، فيلبس القلنسوة السوداء

المطرزة بالفضة ، والثوب الحريرى الكنجى ، ولما يتم سنة فى الخدمة ؟ إنه بهذا يتخطى سبع سنين من العمل الشاق !

أما الپ تكين فرد على حاجبه بأنه أمر وأمره نافذ ، وأما سبكتكين فانحنى أمام سيده حامداً شاكراً . وفكّر الپ تكين ، وفكر الحاضرون معه ، فى أمر هذا الغلام ، ومن يدرى ، أهو حقيقة من نسل يزدجرد ؟ أو أنه من السعداء الذين خلقوا ليَحْكموا ملوكاً ، لا ليُحْكَموا عبيداً ؟ وأحب الپ تكين غلامه ، وأخذ يرفعه كل يوم درجة ؛ رفعه إلى رتبة آبدار ، فكان يسقيه وكان يصب له الماء وهو يتوضأ ، ثم جعله أميناً لغرفته ، وجعل تحت إمرته عشرة غلمان من الفرسان . ولم يبلغ سبكتكين الثامنة عشرة من عمره حتى كان على رأس مائتى غلام ، وأخذت تبدو عليه مزايا الپ تكين نفسه .

* * *

وحدث أن أرسل الپ تكين مائتى فارس ، ومنهم سبكتكين ، وأمرهم بتحصيل المستحق من الأموال على التركمان والخلج [1] ، وذهب الجند لأداء ما طلب إليهم ، ولكن التركمان والخلج أبوا أن يدفعوا كل ما عليهم ، فاقترح بعضهم أن يلجأوا للقوة وأن يعودوا برؤساء العصاة مصفدين ولكن هذا الرأى لم يرق لسبكتكين ، لأنه أمر بتحصيل المال ولم يؤمر بالقتال قال وإنى أخاف أن نقاتل فنهزم ، فيكون فى هذا خزى لنا ، ومعرة لأميرنا . وانقسم الجماعة بين مؤيد لسبكتكين ومعارض له ، وعادوا وقد تفرقت كلمتهم . . .

---

(١) قبيلة من العرب أقامت فى زاولستان وصاهرت التركمان ، وأمدت آسيا الوسطى بجماعة من القادة العظام ، منهم محمد بن بختيار الذى استقل فى ٦٠٢ / ١٢٠٥ وأسس أسرة انتهت فى ٨٠١ / ١٣٩٨ .

ومثلوا أمام الپ تكين فلما سألهم لماذا لم يقاتلوا ، قالوا ثبط سبكتكين همنا ، فلما سأله قال : منعتهم من القتال لأن مولاى لم يأمر به ، ولو حاربنا لكان كل منا سيداً لا عبداً ، وأول صفات العبد أن يطيع الأمر ، لا أن يأمر ؛ ولو أنا حاربنا وهزمنا لسألنا الأمير بأمر من حاربنا ، فرنا إن شئت اليوم ، نذهب لقتالهم ، رخيصةً أرواحنا ، فنعود بالمال وبرؤوسهم جميعاً .

فسرّ الپ تكين بكلام غلامه ، ورفعه درجة ، وجعله رئيساً على ثلاثمائة فارس .

* * *

ومات الملك السامانى ، نوح بن نصر ، وكان الپ تكين فى نيسابور ، فكتب له كبار القوم فى بخارى — عاصمة الدولة — يقولون : مات الملك عن أخ فى الثلاثين وولد فى السادسة عشرة ، فمن منهما ننصبه ملكاً من بعده ؟ وإنا برأيك عاملون ، فإنك أنت عماد الدولة .

فكتب إليهم يقول : إن أخ الملك وولده كلاهما بالملك جدير ، لأنهما من أبناء ملوكنا ، إلا أن أخ الراحل الكريم رجل كامل مجرب ، يعرفنا جميعاً ، ويعرف قيمنا ، ويستطيع أن يتحمل عبء الملك . ثم بعث رسالة ثانية يؤيد فيها تنصيب الأخ .

ولم تمض خمسة أيام حتى جاء رسول من بخارى يحمل البشرى لألپ تكين بأن كبار القوم قد نادوا بابن الملك الراحل ملكاً للسامانيين ؛ فأسقط فى يد الپ . وأخذ يسأل نفسه لماذا استشاروه وفى نيتهم أن يتصرفوا حسب هواهم؟ قال : ووالله للأمير الصغير عندى بمثابة نور العين ، وأخذ يفكر فيما يكون عليه الملك الجديد إذا بلغته الرسالتان اللتان تخلعانه وتنصبان عمه على عرش أبيه ؟ !

وأرسل فى التو رسولا لعله يوقف رسوليه السابقين فى الطريق ، ولكن الرسول لحق ثانيهما ولم يلحق الأول ، الذى بلغ بخارى وأسلم رسالته إلى الملك الجديد .

* * *

وأثارت الرسالة فى البلاط السامانى سخطاً لدى أنصار الملك الشاب ، قالوا قد أساء والى خراسان ، وأخذوا يحدثون الملك عن عمل الپ على حرمانه من عرش أبيه ، الذى هو وارثه شرعاً ، ليلىَ عمه ، الذى لا حق له فى العرش ، وظلوا يتحدثون على هذا النحو ، حتى استشاط الملك غضباً على الپ .

وحاول هذا أن يكفر عن خطئه ، فقدم الهدايا والطرف بغير جدوى ؛ فإن الغضب قد ملأ قلب الملك ولم يبق لصرفه من سبيل ؛ وكذلك انطلقت ألسنة السوء بالوقيعة والدسيسة . . . وصورت الحاشية للملك خطر الپ تكين عليه ، قالوا :

إنك لن تنعم بالسلطان ما بقى الپ تكين ، وقد أصبحت له الكلمة العليا على الجيش ، فإنه يلى إمارة خراسان منذ خمسين عاماً ؛ فإن أنت قتلته صارت أمواله إليك ، فامتلأت خزائنك من ماله ، واستراح قلبك من خشيته ، وصارت لك اليد الطولى فى الدولة كلها ؛ فابعث إليه رسالة تدعوه فيها إلى بخارى ، ليجدد لك الولاء ، ولكى لا يرتاب فى دعوتك ، قل له إنك لم تحضر منذ ولينا عرش أجدادنا لتجدد لنا فروض طاعتك ، وإنا نرى فيك أبا كريماً ، فأنت أساس حكومتنا وعماد أسرتنا . . . فاحضر لبخارى نستبين منك ما خفى علينا فى بلادنا ، فتزداد ثقتنا بك ، وتخرس ألسنة السوء التى تنطلق بالباطل فيك . . . فإذا حضر فاقتله فى غرفته ، تسترح منه ويخل لك الجو .

وكان لألپ تكين أصدقاء فى بلاط الملك ، فبعثوا ينبئونه بما يُدبر له من شر .

* * *

فلما بلغت رسالة الملك الپ تكين دعا هذا رجاله للرحيل إلى بخارى ، فسار من نيسابور إلى سرخس وفى صحبته ثلاثون ألف فارس ، وفى سرخس دعا ضباط جيشه وقال لهم : أتدرون لأى أمر دعانى الملك ؟ قالوا نعم ، دعاك لتجدد له العهد ، فإنك منه ومن آبائه كالوالد .

قال : كلا ، ما لهذا دعانى ، إنما أنا ذاهب لألقى عنده حتفى ، فإنه غِر لا يعرف قدر الرجال ؛ واعلموا أنى منذ ستين سنة وأنا أحمى ذمار هذه الدولة ، وأنا الذى دفعت عنها غارات خاقانات تركستان ، وأنا قضيت على الملاحدة فى ديارها ، وما تذمرت أو غضبت يوماً ، وها هو الملك يدبر لى اليوم جزاء سنمار ، جاهلا أن مملكته جسد أنا رأسه ، فإن هو قطع الرأس فأى غناء فى الجسد ؟ وقد دعوتكم اليوم لتفتونى فى أمرى من هذا الملك .

قال الضباط : إن العلاج فى حد سيوفنا ، وما دام الملك يضمر هلاكك فأى شيء تنتظر ، لقد وليت إمارتنا خمسين عاماً ولو شئت لانتزعت الملك من آل سامان ، ومهما يكن فإنا نعرفك ولا نعرف الملك ، منك أرزاقنا ومنك جاهنا وما نرفل فيه من النعم ، وليس أجدر منك رجلا ، وإنا نطيعك ، وخوارزم وخراسان ونيم روز مسلمة إليك ، فمرنا بخلع منصور السامانى نخلعه ونولك ، وإذا شئت أن تأخذ منه بخارى وسمرقند فإنا ناصروك .

فلما سمع الپ تكين كلامهم قال :

عفا الله ، والله لقد دعوتكم اختباراً لا ائتماراً ، وأنا أعرف أن ألسنتكم

تنطق بما يجيش فى صدوركم ، والخير أن نتدبر الأمر وأن تعودوا إلى بيوتكم ، على أن يكون موعدنا غداً ، ولننظر ماذا سيأتى به الغد .

فلما كان الغد عادوا ، فوقف الب تكين يتحدث إليهم قائلا :

لقد أردت بحديثى معكم أن أعرف شعوركم نحوى ، وهل تكونون معى إذا أمر حزب ، فسمعت منكم جميعاً الوفاء لعهدى ، والاعتراف بنعمتى عليكم ، وقد أسعدنى ما قلتموه . ولكن اعلموا أن الشر صرح بينى وبين هذا الشاب ، ولم يبق من سبيل إلى دفعه بغير السيف ، وهو طفل ينصت إلى ألسنة السوء ، ولا يفرق بين الطيب والخبيث ، وهم يسعون بى لقتلى ، وأنا عماد الأسرة ، ولو أن الضر مسها لما استطاع هذا الصبى له رداً ، وإنى قادر على أن آخذ منه الملك وأولى عمه فيكون لى السلطان عليه ، ولكنى أخشى أن يقول الناس خدم الب تكين السامانيين ووقاهم السوء ستين عاماً طوالا ، فلما بلغ الثمانين خرج على أبناء سادته ، استضعافاً لهم ، وأخذ الملك لنفسه ، فجحد بنعمتهم عليه . . . وقد قضيت ما قضيت من العمر فى حسن الأحدوثة وطيب المحتد ، فلا يليق ، وقد أصبحت قدمى على حافة القبر ، أن أدنس اسمى ، ولو ان الحق بجانبى والعدوان بجانب الملك ، إلا أن الناس جميعاً لا يعرفون ذلك ، وسيقول فريق منهم ، إذا وقعت الواقعة ، جنى الب تكين على الملك . . . ومهما يكن فإنى لا أطمع فى ملكهم ، ولا أبغض دولتهم ، ولكن أداة الشر لن تتوقف عن إيذائى ما دمت فى خراسان ، وقد استخرت الله فهدانى إلى أن أشهر السيف مجاهداً فى سبيله ، فاعلموا أن خراسان وما وراء النهر وخوارزم ونيمروز تابعة كلها للملك منصور ، وأن عليكم جميعاً طاعته ، وقد قمت برعايتكم خدمة له ، فقوموا إذاً ، واذهبوا إلى بخارى ، وجددوا له الميثاق ، وأطيعوه مخلصين ، أما أنا فسأذهب إلى بلاد الهند

مجاهداً في سبيل الله ، فإذا مت كنت شهيداً ، وإذا أيدني ربي فسأبدل مدن الكفار إلى بلاد مسلمة ، طامعاً في الجنة التي وعد الرحمن المجاهدين بها ، وسيعرف ملك بخارى ، إذا رق قلبه لي ، وغفر زلتي ، كم أحسنت صنعاً ، وكم كانت قيمة رجال جيش خراسان . . .

* * *

لم يكن أحد من الضباط يظن أن الپ تكين سيترك حقاً خراسان ، وله خمسمائة قرية وله في كل مدينة منها وفي ما وراء النهر قصور وحدائق وأربطة وحمامات ، وله ملايين الغنم ومئات الألوف من الخيل والبغال والجمال . . . فجعلوا يمرون من أمامه باكين مودعين ، ولكنهم غير مصدقين . . .

وذات يوم دق الطبل معلناً رحيل الپ تكين ومعه غلمانه وحاشيته ، وأما ضباط الجيش فقد ذهبوا إلى بخارى ، وقلوبهم مع الپ . وبلغ هذا مدينة بلخ ، فأعلن في الناس أنه ذاهب للجهاد ، ومكث شهرين ينتظر أفواج المجاهدين ، يفدون عليه من جميع الأطراف .

وبلغ الملك الساماني ما اعتزم عليه الپ ، فجمع حاشيته للشورى ، فأشاروا عليه بأن يرسل جيشاً لقتاله والقبض عليه ، فأرسل ستة عشر ألف فارس ، وعبروا جيحون ، فاضطر الپ إلى أن يتجه ناحية خُلم ، حيث عسكر في واديها الضيق ، ومعه من فرسانه مائتان ، وغلمانه الذين حنكتهم الحروب ، وثمانمائة مجاهد من سائر البلاد ؛ وبلغ جيش الملك السهل فسد المنافذ على الپ وجماعته ، وهكذا أغلق « عنق الزجاجة » عليهم . وظل الجيشان شهرين بغير قتال . . .

وجاءت نوبة سبكتكين ، فخرج يستطلع أمر العدو ، فإذا به يجد السهل قد عسكر فيه الرجال ، وإذا به يجد طليعة العدو تستعد للقتال . فعاد إلى الپ وقال له :

لقد تركت يا مولاى أموالك ، وما أفاء الله عليك من نعمه ، لملك بخارى ووليت وجهك تبغى الجهاد فى سبيل الله ، وها هم يقصدون قتالك ، وإنك ، وفاءً بعهدك ، تبقى عليهم ، ولـكنى أخاف أن تورد نفسك موارد التهلـكة ، فنهلك معك ، وعندي أن السيف خيرُ حكم بينك وبين ملك بخارى .

ثم التفت إلى غلمانه وقال :

هذا يومنا ، وقد عزمت على لقائهم ، رضى الأمير أو لم يرض ، وليكن ما يكون .

قال هذا وسار فى طليعة فرسانه الثلاثمائة فخرج من « عنق الزجاجة » فأعمل السيف فى طليعة العدو ثم أخذ بقية الجيش على غرة وقتل منهم أكثر من ألف فارس ، فقام الجند مذعورين ، فحملوا أسلحتهم وامتطوا صهوات جيادهم ، ولـكنه أقل راجعاً ، ودخل معسكره سالماً دون أن يتمكنوا من اللحاق به .

وبلغ الخبر الپ تكين فناداه ، وقال له كان التذرع بالصبر أولى من القتال ، فقال سبكتكين : طال صبرى يا مولاى ، حتى لم يبق فى قوسه منزع ، ووالله لندفعنهم عنك ولنقتلنهم حيث نثقَفُهم . . .

فقال الپ تكين :

الآن وقد بدأت الحرب بيننا ، لم يبق إلا أن تأمر الرجال بالاستعداد للرحيل ، فلترفع الخيام ، ولتحزم الأمتعة ، ولنبدأ السير حين تؤذن الشمس بالمغيب ، وعلى طُغان أن ينتظر فى كمينه يميناً ومعه ألف رجل ، وعليك أن

تقف فى كمينك يساراً مع ألف غلام ، أما أنا فسأخرج من الطرف الآخر من «عنق الزجاجة» ومعى الأمتعة وألف مقاتل ، وسأسير فى السهل ؛ وسيحضر العدو فى الغداة فيدخل حيث كنا فلا يجد أحداً ، فيظن أنى قد هربت بكم ، فيهطع فى أثرى ، ويخترق «عنق الزجاجة» فعند ما يخرج أكثر من نصف جنده ، عليكم أن تخرجوا جميعاً من مكامنكم ، وتنقضوا عليه انقضاض الصاعقة ، فيقع الذعر فى صفوفه ، ويولى فراراً منكم من لم تدركه سيوفكم ، وعندئذ نحيط بالوادى ، أنا فى القلب وأنتم على الجناحين ، فنحيط بهم ونقتلهم على بكرة أبيهم ، ثم نأخذ معسكرهم غنيمة .

وحدث ما توقع الپ تكين ، وتم الأمر كما رسم ، ودخل جنده معسكر العدو ، بعد أن مُنى بالهزيمة ، فأخذوا ما فيه من خيل وبغال وجمال وأدوات الفضة والذهب والنقود والغلمان ، وتركوا الخيام والأبسطة نهباً للناهبين من سكان القرى المجاورة . . .

* * *

ورحل الپ تكين حتى بلغ باميان فحارب أميرها شيرباريك وهزمه وأسره ، ثم عفا عنه وناداه بولده .

ثم سار إلى كابل فهزم أميرها وأسر ولده (حفيد لويك) ، فأحسن معاملته ثم رده إلى أبيه .

* * *

ثم قصد غزنين فخرج أميرها لويك لقتاله فهزمه ، وحاصر المدينة ، ووجفت قلوب أهل زاولستان (إقليم عاصمته غزنين) ، فأمر الپ تكين بأن

لا يعتدى أحد من جنده على الناس وأن لا يشترى جنده بضاعة من غير أن يدفعوا ثمنها ذهبا . .

* * *

وحدث أن وقعت عين الب تكين على غلام له ، قد حمل فوق ظهره كيساً من التبن وأمسك دجاجة فى يده ، فسأله من أين لك هذا ؟ فقال أخذته من فلاح . قال ولماذا لم تشتره بالذهب ، ألست أنقدك عشرين كانياً (اسم عملة) فى الشهر ؟ ثم أمر بشطره نصفين ، وبأن يعلق على قارعة الطريق مع كيس التبن ، وأن ينادى فى المدينة ثلاثة أيام بأن من يأخذ أموال المسلمين بغير حق فسوف يلقى ما لقى هذا الغلام من العذاب .

وشاع أمر عدل الب تكين وحرصه على المحافظة على حقوق الناس ، وأخذ أهل غزنين يتحدثون ويتناقلون القصص عن عدله ورفقه وحسن إدارته ، قالوا إنا نريد ملكا عادلا نأمن فى ظله على أرواحنا ونسائنا وأموالنا ، وليكن تركياً أو مولّداً من العرب والفرس ، ثم فتحوا أبواب مدينتهم فدخلها الب تكين .

واعتصم أمير غزنين بقلعة فيها وظل يقاوم عشرين يوماً ثم سلّم .

واتخذ الب تكين من غزنين عاصمة لملكه ، وأسس الدولة الغزنوية ، وأخذ يرسل الحملات لفتح بلاد الهند ، فكانت جيوشه تذهب إلى هناك وتعود حاملة معها شتى الغنائم ، مع أن بين غزنة وكفار بلاد الهند مسيرة إثنى عشر يوما .

* * *

وشاع فى خراسان وما وراء النهر أن الپ تكين قد استولى على بلاد واسعة ، وأن جنوده يغزون بلاد الهند ، وأن الذهب والفضة والنعم تنثال عليهم انثيالا ، فأقبل الناس على اللحاق به ، وانضم إلى جيشه ستة آلاف فارسى منهم ، فشجعه هذا على المضى فى فتحه فبلغ بيجاپور (بيقاپور) .

وأما ملك الهند فقد جمع جيشاً عظيما قوامه مائة وعشرون ألف مقاتل وخمسة آلاف فيل ، وعزم على قتال الپ تكين وطرده من بلاد الهند .

واتصل بملك بخارى السامانى أن الپ تكين قد قيض الله له فتحاً مبيناً ، وأن ملك الهند قد استعد لقتاله ، فجمع هو الآخر عدته ، حقداً على الپ تكين ، وبعث لقتاله جيشاً على رأسه أبو جعفر ، فلما علم الپ تكين بذلك أمر بترك جيش السامانيين يقترب حتى صار على فرسخ منه ، ثم أمر بالهجوم عليه فاضطر أبوجعفر إلى الفرار ، وأما الجيش الذى يتكون من خمسة وعشرين ألف مقاتل فقد تبدد شمله ، وهكذا جرت على جيش السامانى هزيمة أشد نكراً من هزيمته فى بلخ وخُلم ، وبهذين الحربين أنهكت قوى السامانيين وأصبحت دولتهم فريسة سائغة لخانات تركستان .

ثم اتجه الپ تكين إلى ملاقاة ملك الهند ، وقد طمع الكثيرون فى خيرات هذه البلاد فانضموا إليه ، وهكذا واجه ملك الهند بقوة كبيرة ، وقد ظفر بالإحاطة به وبإنزاله فى مأزق لا يستطيع الخروج منه ، فاضطر ملك الهند أن يطلب الهدنة ، وأن يعلن استعداده لتمكين الغزنويين من الثراء الذى يريدون ، فأمر بأن تسلم إليهم القلاع ، فقبل الپ تكين هذه الهدنة ، ورجع ملك الهند بجيشه ، وتقدم الپ تكين ليستولى على القلاع ،

فوجد أبوابها موصدة دونه ، وعلم أن ملك الهند قد أخلف وعده ، فأعلن الپ تـكين أن لا عهد بينهما ، وهاجم القلاع وحاصر ما لم يسلّم إليه منها ؛ وفى أثنـاء ذلك مات الپ تـكين . . .

* * *

واجتمع الجنـد الغزنويون فقال أحدهم : لقد أوقعنا الرعب فى نفوس الهنود وحملناهم على خشيتنا ، فإن نحن أطلقنا العنان لنزواتنا الفردية ، وادعى كل منا أنه أحق بالزعامة ، فإن النصر الذى قيضه الله لنا ستعفى آثاره ، ويحل بنا من الهوان ما نعوذ بالله منه ، وسترتد إلى صدورنا السيوف التى قتلنـا بنصالها أعداءنا ، فالأجدر بنا أن نختار أشجعنا وأمضانا عزماً ليكون ملـكا علينا ، فنبايع له ونخلص له كما بايعنا وأخلصنا لألپ تـكين .

واختار الجماعة بإجماع الآراء سبكتـكين خلفاً لألب ، وهكذا أصبح الرقيق ملـكا لأقوى دولة فى زمانها .

* * *

وكان سبكتـكين موفقاً فى حياته ، وقد تزوج من ابنة حاكم زاولستان ، فولدت له ابنه محمود الغزنوى أشهر ملوك الغزنويين الذى طالما حدثت مولاى عن سيرته .

وقد مرن محمود على فن الحـكم فى أيام أبيه ، فإنه كان يصحبه معـه فى غزواته الـكثيرة ويشركه فى إدارة شئون البلاد ، ولذا فإنه ، حين أصبح ملـكا ، استطاع أن يوسع الدولة فبلغت أوجها فى أيامه .

ولـكنه على ما أتيح له من الملك العظيم ، ومع ما فتح الله عليه فى الهند ،

فقد بلغ سُمنات ، مع هذا كله كان يطمع فى الألقاب ويحبها ، حتى أنه خاصم خليفة بغداد ، لأنه لم يمنحه لقباً طلبه ، وكاد يعزله عن الخلافة ويولى عباسياً سواه .

قال ملكشاه : هذا مع أن محموداً كان سنياً متعصباً ، وكان من أشد حماة الخليفة السنى غيرة عليه ، فحدثنا يا نظام عن حبه للألقاب ومخاصمته خليفة بغداد من أجلها .

(سياست نامه ٢٧)

١٨

شيخ الطريقة

منّ الله على عبد شقى بالتوبة عن الذنوب ودخول حلقة أهل التحقيق ، وهكذا أصبح صاحباً للدراويش وتبدلت ذمائم أخلاقه محامد ؛ ولكن ألسنة السوء امتدت إليه تنوشه كالرماح فتشكك فى صلاحه وزهده .

وإنك قد تنجو بالتوبة من عذاب الله ، ولكنك لا تنجو من ألسنة الناس .

فلم يطق ظلمهم له ، وذهب إلى شيخ الطريقة يشكو ، فبكى الشيخ وقال : كيف لا تشكر هذه النعمة ، إنك أفضل مما يظنون فيك .

وانظر إلىّ ، ظنوا فىّ الكمال ، وأنا أقرب إلى النقصان !

(كلستان)

١٩

السلطان محمود والألقاب

الألقاب كما تعلم يا مولاى جعلت جزاءاً وفاقا على عمل نافع ، وأكرم الألقاب ما منحه خليفة المسلمين للملوك ، وقد كان محمود شغوفاً بالألقاب ، فالتمس من القادر بالله لقباً فمنحه لقب « يمين الدولة » ؛ وبعد أن فتح محمود خراسان ونيم روز والعراق والهند حتى سمنات ، طمع فى لقب جديد يتفق وهذا الملك الواسع ، فبعث إلى الخليفة ملتمساً لقباً جديداً وأرسل مع رسوله هدايا كثيرة للخليفة ، ولـكنه لم يجب طلبه .

واتفق أن أنعم الخليفة على خاقان سمرقند بثلاثة ألقاب ، فلما سمع محمود هذا غضب وبعث إليه يقول : إنى فتحت بلاد الـكفار ورفعت لواء الإسلام فيها والتمست لقباً فضننت به علىّ ، ومنحت خاقان سمرقند ثلاثة ألقاب مع أنه تابع لى . . .

فأرسل إليه الخليفة يهدىء من روعه ويؤكد له « أن الألقاب ترفع من قدر حامليها وأنك بحمد الله عال القدر بغيرها ، أما خاقان سمرقند فتركى جاهل ينشد الألقاب ليشتهر بها ، ولذا فإنى منحته إياها ، ولم أمنحك ما طلبت عرفاناً بقدرك ، وأنت تعلم مكانتك من نفسى » .

وكان عند محمود جارية لها ذكاء وقاد ، وكان يؤثرها على جواريه ، ويستمع

إليها وهى تقص الحكايات وسير الملوك ، فلما رأته الجارية غاضباً سألته عما يدعوه إلى العبوس وإطالة التفكير ؟ فقص عليها قصته مع الخليفة ، وقال إنه يريد أن يظفر ببراءات ألقاب الخاقان ، ولمن يحملها إليه أجر عظيم ؛ فقالت له الجارية إنى ذاهبة عنده وسآتيك بهذا الذى تريد ؛ واستعدت الجارية للسفر ، وأمدها محمود بكل ما تريد .

***

سافرت الجارية من غزنين إلى كشغر ، ومعها ابنها الصغير ، وقد اشترت كثيراً من البضائع والإماء والغلمان ، وسارت إلى سمرقند .

وبعد ثلاثة أيام اتصلت بالخاتون ، زوج الخاقان ، فأهدتها جارية حسناء ، وأفهمتها أنها كانت زوج تاجر غنى ، وأن زوجها مات فى الطريق ، وأنها استعانت بالخاقان والخاتون لدى خانات كشغر وأزبك ، ولهذا فقد ساعداها على بلوغ سمرقند ، وأكدت لها أنها ستبقى مخلصة لها وللخاقان ما عاشت ، وأقسمت على ذلك بربها وبابنها الذى ليس لها غيره فى هذه الدنيا ، والتمست منها أن تتخذها جارية لها منذ اليوم ، فقد تعلق قلبها بها ، ولذا فقد عزمت على بيع حليها وما معها من بضائع لتشترى ضيعة قريبة من سمرقند ، وذلك لتبقى قريبة من الخاتون ، فتربى ولدها وتنعم بعطف الخاقان وزوجه . . .

وسرت الخاتون بلقاء الجارية ، ووعدتها بالمساعدة وأمرت بإعطائها بيتاً تسكنه ، ومعاشاً يسد نفقاتها ، ووعدتها بأن تتحدث إلى الخاقان ليهبها كل ما تريد . . .

وسجدت الجارية للخاتون ، وقالت لها أنت منذ اليوم سيدتى ، والتمست منها أن تهيىء لها مقابلة الخاقان لتتحدث إليه ، فأمرتها الخاتون بأن تعود غداً . . .

* * *

فلما رأت الخاقان أفهمته أن بضاعة زوجها قد أنفق ثمنها كله ، بين هدايا خان كشغر ونفقات الطريق ، ثم أهدته غلاماً تركياً وجواداً مطهماً ، ورجته أن يقبلها جارية في قصره ، عسى أن تتمكن في ظله وظل الخاتون من تربية الطفل اليتيم . . .

وكانت الجارية تهدى الخاتون هدية جميلة من حين إلى حين ، ثم كانت تقص عليها وعلى الخاقان من جميل القصص ما قربها منهما ، وجعلهما شديدى الحرص على مجلسها . . .

ثم إنها كانت تمتطي جوادها وتخرج بعيداً عن سمرقند وتقضى يومين أو ثلاثة ، وتبعث رسولا يعتذر عنها عند الخاقان والخاتون بأنها تريد أن تشترى أرضاً في القرية التي قصدتها ، فكان ذلك يثلج صدرى الأميرين فيقولان إن الجارية تعمل على إدامة الإقامة بيننا . . .

وكان الخاقان وزوجته يغدقان عليها المنح ، ولكنها كثيراً ما كانت ترفض منحهما ، لأن أمنيتها الوحيدة في الحياة — كما تقول — أن تسعد برؤيتهما ، وقد يسر الله لها قوتها اليومى ، ثم كانت تؤكد أنها إذا رغبت في شيء فانها ستطلبه بنفسها . . .

وظلت على هذا النحو ستة أشهر ، إلى أن تمكنت من بيع كل أموالها بالذهب ، ثم أعطته إلى تاجر تعود الرحلة بين غزنين وسمرقند ؛ واتفقت مع خمسة فرسان على أن ينتظرها كل منهم في مرحلة من الطريق ، بين البلدين . . .

وراحت الجارية إلى الخاقان والخاتون فقدمت تحية الصباح وقالت إن لدى سؤالا أخاف أن أتقدم به إليكما ؛ فقالت الخاتون أطلبي ما شئت .

قالت : إنه لم يبق لى من دنياى غير طفلى اليتيم الذى أعلمه القرآن ، والذى أرجو أن يوفقه ربه ببركة مولاتى ومولاى ، وإنه ليس أعز ، بعد كلامى الله ورسوله ، من هذه البراءات التى تصدر عن أمير المؤمنين ، وكاتبها خير من أقرانه جميعاً ، وإنى ألتمس أن يؤذن لى بأخذ هذه البراءات التى وجهها الخليفة لمولاى الخاقان ، ليقرأها ولدى مستعيناً بمعلمه فى يومين أو ثلاثة . . .

فقالت الخاتون : أهذا كل ما تريدين ، ليتك طلبت مدينة أو ولاية .! ولدينا من هذه الرسائل خمسون ، فقالت الجارية يكفينى واحدة يا مولاتى . قالت الخاتون لخادمها خذ السيدة واعطها من الرسائل ما تريد ، فذهبت الجارية معه واختارت الوثائق التى طلبها محمود الغزنوى ، وانصرفت . . .

وفى الغداة أمرت بإعداد الركب لرحلة خمسة أيام ، وأشاعت أنها ذاهبة لشراء أرض فى قرية بعيدة ، ثم صارت إلى ترمذ ، وكانت تقابل بالإجلال حيثما نزلت ، فإنها تحمل أمراً من الخاقان يمنحها امتيازات خاصة ، وفى الليل أكملت رحلتها فبلغت بلخ قبل أن تعرف الخاتون أن صاحبتها قد قامت فى رحلة من رحلاتها . . . ومن بلخ سارت إلى غزنين فأسلمت محموداً الغزنوى البراءات التى كان يريدها . . .

* * *

وبعث محمود بهذه البراءات إلى الخليفة مع أحد الفقهاء المبجلين ، مذكراً الخليفة بهذا التركى — خاقان سمرقند — الذى ترك هذه البراءات بغير رعاية أو عناية ، فتناولتها الأيدى ، وقد لقيها أحد رجال السلطان ، وكان فى جولة بسمرقند ، فى يد طفل يعبث بها محاولا قراءتها ، وهكذا استهتر الخاقان بهذه البراءات التى يمنحها الخليفة له ، بدلا من أن يجعلها فى مكان أمين حتى لا يعبث بها أحد .

وغضب الخليفة عند ما سمع هذا الكلام وأرسل يؤنب خاقان سمرقند.
وظل رسول محمود ستة أشهر يلتمس لقباً جديداً لسيده ، والخليفة لا يأبه بما يطلب . . . فكتب هذا الفقيه إلى قاضى القضاة يسأله إذا كان يجوز لسلطان يعمل لنشر الدين ويجاهد فى سبيل الله وهو بعيد عن الخليفة ، فلا يستطيع أن يتصل به ليوقفه على أحواله ، أيجوز لهذا السلطان أن يقيم أحد بنى العباس خليفةً ، ليكون قريباً منه ؟ فأجاب القاضى بالجواز .

فلما يئس الفقيه من الخليفة ، أرفق الفتوى بطلب اللقب وبعث بهما إليه ، فلم يكد هذا يطلع على الفتوى ، حتى أسرع فبعث حاجبه للفقيه ، فلما مثل بين يديه أكرم وفادته ، وخلع على محمود لقب « أمين الملة » .

وهكذا ظفر محمود بلقب جديد ، ولكنه يا مولاى لقب مغتصب ، وهذا الحادث وإن دل على ضعف محمود فى هذه الناحية ، فانه لا ينفى عظمة محمود وجدارته .

(سياست نامه ١ ٤١)

٢٠

الملك والسائل

رأى ملك سائلا ، فقال له إنى أغنى من جميع ملوك الأرض ، إنى رجل الله . فقال له الملك : فكيف تكون أغنى من الملوك ؟ فقال :
لأن الملك رجل محتاج لأشياء كثيرة ، ولكن الدرويش رجل لا يحتاج شيئاً ، وأنا درويش ، فأنا أغنى منكم جميعاً . (كلستان)

٢١

يوم القيامة والعمل الصالح

رأى رجل ميدان يوم القيامة ، فى منامه . كانت الأرض ساخنة ، قد اقتربت الشمس منها ، وقد ابتلى الناس بالجوع والعطش ، وحمل المذنبون أوزارهم على رؤوسهم ، وكانوا يقدمون الحساب عنها ؛ وكانوا يسيرون فوق الصراط ، فكان بعضهم يهوى إلى جهنم وقد نكست رأسه . وكان الميزان فى الوسط ، فى كفتيه الموازين والأعمال ؛ والناس جميعاً من الملوك إلى الدراويش ، من الأقوياء إلى الضعفاء ، مشغولون بأعمالهم . وكان كل نبى يحدث أمته قائلا : لقد بينت لكم أحكام الله ، وحدثتكم عن يوم القيامة ، وأمرتكم بالمعروف ونهيتكم عن المنكر ، ثم دعوتكم إلى عبادة ربكم وطاعته ، فبأى الأحكام عملتم ، وأىّ الأوامر أطعتم ؟

والخلاصة أن قلوب الناس ، فى ذلك اليوم ، كانت مملوءة بالدم وعيونهم مملوءة بالدمع والندم .

وفى أثناء ذلك رأى النائم رجلا قد اتشح بثوب أزرق وعلى رأسه تاج الجنة ، وقد جلس فى ظل العرش الأعظم .

فمر به الرجل وسأله ، أى عمل صالح قدمت فى دنياك حتى كانت لك العقبى ؟

فقال:

حفرت على حافة الطريق بئراً، وغرست بجوارها شجرة، وذلك ليشرب المسافرون والغرباء من الماء ويستريحوا فى ظلال الشجرة. وقد أتى، يوماً، فقير حافى القدمين، عارى الرأس، رث الملبس، أتى فى هدوء ووقار واستراح ساعة فى ظل الشجرة، فدعا ربه قائلا: «رب إنى آويت إلى ظل شجرة فلان، رب ارحمه من عذاب يوم القيامة»، فغفر الله ذنوبى، وبلغت هذه الدرجة بفضل ما قدمت من الخير.

فلما استيقظ الرجل من النوم كان مصفر الوجه من الخوف، فحفر بئراً وغرس شجرة وبنى مضيفة وقضى ما بقى من عمره فى خدمة المسافرين والفقراء والغرباء. (جامع الحكايات)

٢٢
المريض والبيطار

أصيب رجل ساذج بمرض فى عينه، فذهب إلى بيطارى وطلب منه أن يعالجه، فوضع البيطارى فى عين الرجل ما يضعه فى عين الدواب من دواء، فعميت عينه.

فلما رفع الأمر للقاضى قال:

ليس على البيطارى إثم، إذ لو لم تكن حماراً لما ذهبت إليه.

(كلستان)

٢٣

الأمير القصير

كان لأحد الملوك ولد قصير القامة ، نحيف الجسم ، وأولاد قاماتهم كالسرو ، وأجسامهم ضخمة ، فكان الملك يكره ابنه القصير ، وأدرك الولد شعور أبيه نحوه ، فقال له :

يا أبت إن قصيراً عاقلا خير من طويل جاهل ، فليس كل من طالت قامته عظُمت قيمته ، ألم تر إلى طور ، أقل جبال الأرض ، ولكنه أعظمها قدراً ومنزلا عند الله ، ثم ألم تعلم أن الحصان العربى مع هزاله خير من الحمار السمين ؟ فلما سمع الملك ذلك ضحك ، وسُر أركان الدولة ، وغضب أخوته .

وكان للملك عدو صعب المراس ، فأرسل جيشه ليحاربه ، فلما التقى الجيشان كان الأمير القصير أول من دهم العدو ؛ وكان جيش الملك قليل العدد فأشار جماعة بالهرب حتى لا يغلبهم العدو ، فصاح الأمير القصير بالفرسان أن يثبتوا ويقاتلوا حتى لا يلحقهم الخزى ، وقد ظفر جيش الملك بالنصر فى هذه الواقعة .

وسمع الملك ما كان من إقدام ابنه وشجاعته فقبله واحتضنه ، وأخذت مكانته تعلو لديه ، حتى جعله ولى عهده ؛ فنقم عليه أخوته هذه الحظوة ، ودسوا له السم فى الطعام . وجاء الأمير القصير ليأكل ، وكانت أخته واقفة

تنظر ما يفعل أخوته ، فخشيت أن يأكل أخوها من الطعام المسموم فأغلقت النافذة بشدة ، فتنبه الأمير للأمر ، وامتنع عن الأكل .

ولما علم الملك ما جرى بين أولاده ، دعاهم وأنبهم ، ثم خص كلا منهم بناحية من مُلكه ، فأسرع الأولاد إلى إماراتهم فحكموها ، وهدأ ما بينهم من نزاع . وقد قيل إن عشرة دراويش ينامون على كليم واحد ، ولا يستقر ملكان على إقليم ، ولو ظفر درويش برغيف لأكل النصف وأعطى النصف الثانى للدراويش ، ولو ظفر ملك بإقليم لطمع فى إقليم آخر .

(كلستان)

٢٤

سلمان الفارسى

عند ما ولى عمر بن الخطاب الخلافة ولّى سلمان الفارسى حاكما لمدينة فى الشام ورتب له خمسة آلاف درهم .

ولكن سلمان لم يكن ينفق على نفسه من هذه الوظيفة ، بل كان يشتغل فى أوقات فراغه بنسج الزنابيل من سعف النخل ، فيبيعها وينفق ثمنها ، أما وظيفته فكان يتصدق بها على الفقراء .

فسئل عن حكمة ذلك فقال :

خشيت أن أنفق مرتبى فى لذائذ الحياة ، فأفقد من عبادتى بقدر ما أجد من لذة .

(جامع الحكايات)

٢٥

الأصل الوضيع

كمن جماعة من اللصوص فى رأس جبل ، وقطعوا طريق القوافل ، وارتعدت فرائص الرعية من مكايدهم ، وحار جند السلطان معهم ، فقد اتخذوا من قُلة الجبل ملاذاً منيعاً ، يأوون إليه ؛ فتشاور رجال الدولة لدفع مضرتهم ، وخشوا إن تركوهم يدأبوا على النهب والسرقة وتتعذر مقاومتهم ويستفحل خطرهم .

فإنك تستطيع أن تقتلع الشجرة التى غرست حديثاً ، ولكنها إذا تركت ، فثبتت فى الأرض ، فإنك لا تستطيع اقتلاعها . . .

فقرّ الرأى على إرسال رجل ليتجسس على اللصوص ، حتى إذا غادروا مكامنهم ، أخبر الرجال ليذهبوا ويختفوا ويفاجئوا اللصوص فى عودتهم . وخرج قطاع الطريق فى غارة لهم ، وكمن لهم رجال السلطان ، فلما عادوا ليلاً واستولى عليهم النوم ، داهموهم وقيدوهم واقتادوهم إلى السلطان ، فأمر بقتلهم جميعاً .

وكان بينهم فتى فى عنفوان الشباب ، وميعة الصبا ، فتدخل الوزير الطيب ، وشفع له عندالسلطان ، وقال : هذا الولد ، كما يرى مولاى ، لم يذق ثمرة حياته ، ولا تمتع بشبابه ، وإنى لأرجو أن يتفضل مولاى فيمنّ علىّ بحقن دمه ،

فتجهم وجه الملك وقال :

لا يتحلى ذو الأصل الوضيع بخصال الطيّبين ، وإن التربية لا تجدى فيه ، فالأولى أن يُقطع دابرهم ، وتمحى آثارهم ، والخير أن نقتلع أصولهم وفروعهم ، وليس من الحكمة أن تطفئ النار وتترك شررها ، أو أن تقتل الأفعى وترعى صغارها !

لو أن السحاب أمطر ماء الحياة فإنك لا تجنى من شجرة الصفصاف ثمراً ، ولن تجنى القصب من قش الحصير ، فلا تضع الوقت مع وضيع الأصل .

فلما سمع الوزير هذا الكلام ، اضطر إلى الموافقة عليه ، وقال إن ما أمر به مولاى هو عين الحقيقة ، فإن هذا الفتى لو سلك سلوك الأشرار لتطبع بطبعهم ، ولصار واحداً منهم ، وأملى فيه أن تهذبه صحبة الأتقياء ، ويتحلى بحكمة العقلاء ، فإنه طفل بعدُ ، ولمّا تتمكن منه سيرة أهل البغى والعناد ، وقد جاء فى الحديث يا مولاى :

« ما من مولود إلا ويولد على فطرة الإسلام ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وأخذ يتكلم على هذا المنوال ، وأيده جماعة من الندماء ، فعفا الملك عن الشاب وقال : عفوت عنه ولو أنى لا أرى فى ذلك خيراً .

ثم إن الوزير أخذ الفتى إلى بيته ، ورباه تربية صالحة ، ووكل بتعليمه أستاذاً أديباً ، علمه حسن الخطاب ورد الجواب وسائر آداب الملوك ، حتى صار الفتى موضع أنظار الجميع .

وتحدث الوزير عنه عند الملك ذات مرة ، وقال إن تربية أهل الحكمة أثرت فيه ، وإن الجهل الذى كان فيه قد زال عنه ، فابتسم الملك وقال :

إن مصير ابن الذئب أن يكون ذئباً ولو شب مع الآدميين

ومرّت على هذه الحال سنة أو سنتان ، واتصل جماعة من أوباش المدينة بالفتى ، وتعاهدوا معه ، فانتهز الفرصة وقتل الوزير وولديه ، واستولى على ماله ، وسكن المكان الذى كان يلجأ إليه أبوه فوق قمة الجبل ! وبلغ الخبر الملك فقال :

إن التربية لاتصلح الوضيع ، فالسيف البتار لايخرج من رديء الحديد ، والمطر الذى لا خلاف فى لطافته ، ينبت فى الحديقة زهرة اللالة ، ويخرج فى الأرض الملحة ، الأعشاب ؛ إن استعمال الطيبة مع الأشرار ، كاستعمال الخبث مع الأبرار .

(كلستان)

٢٦

بزرجمهر والحكماء

ذهب جماعة من أهل الحكمة إلى كسرى يحدثونه فى شأن من شؤونهم ، وكان بزرجمهر جالساً مع كسرى ، ولكنه أخذ يستمع إلى قول الحكماء ولا يساعدهم ، فسألوه لماذا لم تتكلم لتؤيد قولنا عند كسرى .

فقال :

نحن كالأطباء ، والطبيب لا يصف الدواء لغير مريض . وقد رأيتكم تتحدثون إلى الملك بالحق فلم أر فى كلامى فائدة لكم .

(كلستان)

٢٧

فى عدل الملوك وسيرتهم

قال نظام الملك محدثا السلطان ملكشاه :

أمرت يا مولاى أن أكتب لك هذا الدستور فلم يسعنى إلا أن أصدع بالأمر ، وكم كانت مهمتى يسيرة عندما استلهمت سيرتك ، وتدبرت سياستك ، وأنت يا مولاى من أتاح الله تعالى له كل أسباب المجد ووسائل الخلود . وقد أراد الله بهذه الدولة خيراً فنصبك عليها ملكا ؛ ولم يكن الملك عليك جديداً ، وجدودك يملكون العروش منذ عهد جدك العظيم أفراسياب . وقد وهبك ربك من الصفات الجميلة ، والطلعة البهية ، والطبع المعتدل ، والعدل والشجاعة والعلم والشفقة والرحمة والوفاء والتمسك بالدين القويم ، وطاعة الله وتقدير العلماء وأهل الحكمة ، ما يجعل ملكك سعيداً ، قوى البنيان ، وارف الظلال .

والركن الأول فى الحكم الصالح أن يكون الملك عادلا يا مولاى ، وقد قيل : « المُلك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم » . فعلى الملك أن يُرضى ربه فى حكم رعيته . واعلم أن الملك الذى يستمد قوته من حب شعبه له ، لهو صاحب العرش المكين .

وقد حكى أن يوسف عليه السلام أوصى بأن يدفن بجوار جده ابراهيم ،

فلما مات هموا بدفنه حسب وصيته ، نزل جبريل من السماء وقال : ليس هنا مكانه ، فإن الله سوف يحاسبه عن حكم الناس .

فإذا كانت هذه حال يوسف الصديق فكيف بالملوك من الناس

***

وقد حكى عن عبد الله بن عمر أنه حين اقتربت المنية من أبيه سأله متى يراه بعد موته . فقال عمر : أراك يوم القيامة إن شاء الله . فقال عبد الله : وددت لو أراك قبل ذلك . قال عمر : إذاً ترانى فى الرؤيا بعد يومين أو ثلاثة من موتى .

ومضت الليالى الثلاث ولم ير عبد الله أباه . وبعد إثنى عشر عاماً جاءه فى المنام ، فسأله عبد الله : ألم تقل يا أبت إنى أراك بعد ثلاث ليال من موتك ؟ فقال عمر : لم يتح لى الوقت يا بُنى ، فقد كان ربك يحاسبنى عن جسر تهدم أثناء فتح العراق ولم يصلحه العمال ، وقد عثرت به شاة فكسرت ساقها .

***

فاعلم يا مولاى أن الله محاسبك يوم القيامة عن حكمك الناس ، فعليك ألا تفوض أمر الرعية ، التى اختارك الله لرعايتها ، لغيرك . وعليك أن تعرف ما يجرى بين الناس ، حكاما ومحكومين ، سراً وعلانية ، وأن تضرب على يد المعتدين منهم ، وألا تظلم منهم أحداً . يرعاك الله ويؤيدك ويسدد خطاك .

وإذا كان القضاء يصدر أحكامه باسمك لأنك تستمد سلطتك من الله الذى هو العدل ، فعليك أن تكون على رأس القضاة ، وأن تعقد محكمتك مرتين فى الأسبوع لتسمع شكاوى الرعية ، فتدفع الظلم عمن يتظلم ، ولكى يتم ذلك

على الوجه الأمثل ، ينبغى أن يستمع الملك بنفسه إلى الشاكين من رعيته ، وأن ترفع إليه جميع التحقيقات الخاصة بالقضايا المعروضة ، فيدرسها بنفسه ، ثم يصدر الحكم الذى يرى ، متبعاً قواعد العدل والانصاف ، وكم يقل الظلم ، ويتضاءل النزاع ، إذا ما علم الكافة أن الملك يرأس محكمته الخاصة مرتين فى الأسبوع لسماع المظالم والقضاء فيها بنفسه ، فان هذا يرجع المعتدى عن عدوانه كما يرد من غوى عن غيه . وقد كان ملوك الساسانيين يحرصون على هذا التقليد أشد الحرص .

* * *

فقد سمعت يا مولاى أن ملكا منهم ، كان أصم ، وكان يخشى ألا ينقل إليه رجاله شكايات الناس نقلا أميناً ، فيحكم بينهم بغير العدل ، فأمر أن يلبس المتظلمون من الرعية ثياباً حمراء ، وألا يلبس غيرهم ثياباً من هذا اللون ، وذلك ليعرفهم الملك . فإذا كان يوم النظر فى المظالم ، امتطى الملك فيلا ووقف فى الميدان وجمع حوله ذوى الثياب الحمر ، ثم أخذهم فرادى فى مكان قصى ، وأمر كلا منهم أن يرفع صوته عالياً حتى يسمع الملك شكواه ، فينصفه .

* * *

ولينتبه الملك إلى تقلب الأيام وغدر الزمان . ألم تر إلى المعدل بن على ابن ليث الصفار ، وقد امتلأت بالمال خزائنه ، وقويت بالجيش دولته ، فشق على خليفة الله عصا الطاعة ، ومضى فى سياسة أخيه ، مؤثراً العدوان على الوئام ، والحرب على السلم ، وكلما حاول الخليفة أن يهدىء من ثورته استغشى ثيابه واستكبر استكباراً . ساق الجيوش الجرارة ، واستعان بالمال الذى

تفيض به الخزائن العامرة ، ومضى يقاتل أمير المؤمنين الذى استنجد بأبى نصر ابن اسمعيل السامانى ، فسار هذا لنصرته فى جيش قل عدده وعدته . وشاء ربك أن تغلب قلة السامانى كثرة الصفارى ، وأن يؤسر فلم ينفعه ماله الوفير ولا جنده الكثير . وقد كان عمرو ملكا مترفاً ، يلتف حوله الكتاب والشعراء والأمراء ، وكانت مائدته تتسع لمئات منهم كل يوم ، وكان مطبخه يحمل على أربعمائة جمل حين يرتحل ؛ فلما وقع فى الأسر وعضه الجوع طلب من أحد حراسه أن يبحث له عما يسد به رمقه ، فسارع الجندى واشترى قليلا من اللحم واستعار موقداً ؛ وقبل أن يتم نضج اللحم أغرت رائحته كلباً فأتى وكشف عن الإناء الغطاء ، ولما مد فمه ليأخذ قطعة منه أوذى بحرارته فجرى وقد علق الإناء برقبته ، فلما رآه عمرو ندم وقال : أرأيت من أصبح أميراً وأمسى أسيراً .

فعلى الملك أن يتبصر لما تخبئه الأيام ، وأن يعمل لغده كما يعمل ليومه ، وأن ينظر إلى تاريخ الملوك ليتخذ منه العظة والعبرة . وقاك الله يا مولاى شر الزمان ، وأمنك غيلة الأيام .

(سياست نامه ٣)

٢٨

أعياد الفرس

النوروز

علا عرش إيران فى الأزمنة القديمة ملك عظيم اسمه جمشيد ، وقد أولع هذا الملك بحب بلاده ، فكان يكرس وقته كله لخدمتها ورعاية مصالحها ، وقد استطاع بما له من حيلة وذكاء ، أن يسخر الجن ، وأن تذعن له الطير ، ولم يكن أحد من ملوك عصره يدانيه فى قوته وبسط سلطانه ، ولم يكن جمشيد مع ما أوتى من أبهة الملك وسعة البلاد وخضوع الجن وإذعان الطير له ، لم يكن مع هذا كله متكبراً على الإيرانيين ، بل كان يحبهم ويكثر من الاجتماع بهم والتحدث إليهم ، وكان إذا اجتمع بالإيرانيين يقول لهم : إنى قد ملكتكم بما خصنى الله تعالى من فضله ، وألبسنى من نوره ، لأعمر الأرض ، وأؤمن الخلق ، وأبسط العدل ، وأكثر البذل ، وأحيي الخير ، وأميت الشر ، وكان الإيرانيون يسمعون هذا الكلام ويتناقلونه ، فتزداد مكانة ملكهم فى نفوسهم ، حتى أنهم كانوا يسجدون له .

***

وكان بجواره ملك يحقد عليه ما اختص به من نعم ، وأدرك جمشيد ما يضمره هذا الملك من سوء له ، فاستعد لقتاله ، وقامت الحرب بين ملك

صيدون وجمشيد ، ونزل هذا بنفسه إلى المعركة فضرب عدوه ضربة قضت عليه ، فانفض جنده وخضعت بلاده ، فدخلها الملك الظافر ، وأقام فى بيت الملك المغلوب . وكان لملك صيدون بنت ذاع صيت جمالها ، وحسن أدبها ، فلما رآها جمشيد أحبها ، وأراد أن يتزوجها ، فلم تستطع أن ترفضه ، وتزوجها جمشيد وسار معها إلى إيران .

وكانت بنت ملك صيدون تحب أباها حباً عظيما ، ولم يكن زواجها من أعظم ملوك الأرض وأوسعهم ملكا وأكثرهم ثراء لينسيها أباها ، فهى حزينة عليه حزناً زهدها فى كل ما فى قصر جمشيد من أبهة وجمال ، وكلما حاول جمشيد أن يخفف من حزنها أو يشرح من صدرها لم تلتفت إليه ولم تتأثر بما يعمل لإرضائها . ودخل عليها ذات يوم فإذا بها تبكى وتندب أباها ، وتذكر أيامه الخالية ، وأيامها السعيدة فى عهده ؛ فأشفق عليها جمشيد ، وخشى أن تهلك إذا دأبت على البكاء ، فسألها أن تعاونه فى إيجاد وسيلة تنسيها أباها ، وتلفتها إلى ما هى فيه من خير ونعماء ، وتحقق آمال جمشيد فى أن تكون ربة هذا البيت الذى أعده لها ، وملكة على هذه البلاد التى تحبها حباً جماً . قالت السيدة الحزينة : مُرْ مهرة الفنانين بعمل صورة لأبى حتى أراها كل يوم ، لعل هذا يخفف حزنى وينسينى فراقه . فكان لها ما سألت .

* * *

وعكفت بنت ملك صيدون على عبادة صورة أبيها ، وأدرك جواريها أن سيدتهن تسجد للصورة التى أعدها الشياطين لها ، وأنها تعبدها من دون الله ، فسجدن للصورة كما تسجد سيدتهن ، واتخذن مكانها معبداً لهن ، وأخذن يقمن الصلاة ، ويتوجهن بالدعاء للصورة التى عملها الشياطين ، فى قصر

الملك جمشيد . وكان الصديقون يسمعون بما يجرى فى قصر الملك من عبادة الصورة ، فيرفعون أيديهم يدعون ربهم أن يرفع عنهم هذا البلاء ، ويخلّص إيران من عَبَدة الصور .

وكان لجمشيد خاتم ، هو سر تسخيره للجن وإخضاعه الطير ، وهو الذى يهيئ له ما يلقى من النصر فى حروبه والسعادة فى ملكه . وكان لا ينزع هذا الخاتم من إصبعه ، إلا حين يدخل الحمام ، وحينئذ يودعه خادماً مخلصة اسمها « الأمينة » .

فلما أعرض جمشيد عن نصح الصديقين ، ولم يقض على بنت ملك صيدون وبدعتها ، غضب الله عليه ، فسلط عليه صاحب البحر « صخراً » ، وهو من المردة الشياطين . فانتهز هذا فرصة دخول جمشيد الحمام ، وتركه الخاتم مع «الأمينة» فتزيا بزيه ، وقلد صوته ، وذهب يطلب الخاتم من «الأمينة» فأعطته إياه ، ولم يكد يلمسه حتى أصبح فى مقدوره أن يحكم الإنس وأن يخضع الجن لأمره وأن يجعل الطير تعكف عليه ؛ فلما أخذ الخاتم وضعه فى إصبعه ، وأسرع إلى عرش جمشيد فاستوى عليه... وخرج جمشيد من الحمام فطلب الخاتم من «الأمينة» فأنكرته وهزأت به وقالت إن جمشيد أخذ خاتمه وإنه علا العرش .

فخرج جمشيد من قصره وقد تغيرت هيئته ، ورثّت حاله ، وراح يلتمس الرزق من معاونة الصيادين فى البحر . ولم يكن من اليسير على جمشيد أن يتحمل قسوة الحياة وذلة العمل مع الصيادين ، فكان يذكرهم بحاله ، ويحدثهم عما كان له من الملك العظيم ، ولكنهم كانوا يسخرون منه ويتخذونه هزأة لهم ، وتضايق أحدهم من قصته فنهاه عن التحدث عنها ، فلما عاود جمشيد الحديث فيها ضربه فشج رأسه ، فكان يستعين بماء البحر لتنظيف جرحه ؛ ثم أخذ يستغفر ربه ويطلب عفوه .

* * *

أما صخر ، الشيطان ، فقد علا على أهل الأرض واستضعفهم ، وسار فيهم سيرة لم يألفوها من قبل ، والتفت « آصف » ، وهو من الصديقين ، فإذا به يرى الخير قد أصبح شراً ، والعدل ظلماً ، ويرى أعمال جمشيد وقد تغيّر طابعها ، فمن عمارة الأرض إلى خرابها ، ومن إحياء النفوس إلى قتلها ، ومن بث الخير إلى اقتلاع بذوره وغرس الشر . فرابه ما رأى ، وراح يصلى ويدعو ربه أن يعينه على إدراك الحقيقة . وذهب « آصف » فسأل نساء القصر هل لاحظن على جمشيد شيئاً ، فإذا بهن قد سئمنه ، وإذا بهن ينكرن منه كل شيء ، إنه قد بُدل تبديلا .

وجمع « آصف » الصديقين ، فأخذوا يتلون التوراة ويتضرعون إلى الله ، يسألونه الرفق بالناس وصلاح الحال . ومكر الله بصخر ، والله أشد مكراً ، وأدرك صخر أن عذاب ربه محيط به ، فخاف على نفسه وطار إلى البحر ، فوقع الخاتم من إصبعه ، فابتلعته سمكة وغاصت به فى اليم .

* * *

وكان جمشيد يشتغل أجيراً عند صياد ، وكان أجره سمكتين كل يوم ، فكان يبيع واحدة ليشترى بثمنها خبزاً ، ويشوى الأخرى ليأكلها . وذات يوم شق بطن السمكة قبل شيِّها ، فوجد الخاتم فيها فأخذه ، وحمد الله على أن رد إليه ملكه ، وأدرك أن ربه أذاقه مر العذاب بما أباح من عبادة الصور فى قصره أربعين يوماً .

وكان الإيرانيون فى ضنك مما أصابهم أيام صخر ، فقد زالت البركة عنهم ،

لجفت الأنهار ، وسكنت الريح ، ومات الزرع ، وسادت الشياطين . وقد أخذوا يتطلعون إلى السماء ويدعون ربهم أن يرفع عنهم سخطه وغضبه ، وأن يدفع عنهم السوء ؛ وبينما هم فى دعائهم إذا بعجلة من العاج والساج ، مفروشة بالديباج ، يحملها الشياطين على أكتافهم ، قد أقبلت بين الأرض والسماء ، وفيها ملكهم جمشيد وقد جلس على عرش من الذهب ، ومن فوقه هالة من نور ، وقد انعكست أشعة الشمس على العرش الذهبي فتلألأ ، وبدا فى أروع منظر ، فعلا هتافهم إلى عنان السماء ، حمداً لله وشكراً ، إذ رد إليهم ملكهم ، وصرف عنهم السوء ، وصاحوا فرحين : نوروز آمد ، أى جاء اليوم الجديد .

وكان هذا أول الربيع ، وهو عيدهم الأعظم .

المهرجان

وطال عهد جمشيد ، وملأ الأرض عدلا وخيراً ، ونظر فإذا كل من عليها خاضع له يخشاه ، فأخذه الغرور بنفسه ، وادعى الألوهية ، وأمر الناس بعمل تماثيل له يعبدونها من دون الله ، فأغضب هذا ربه ، وسلط عليه الضحاك العربى ، فانتزع الملك منه وقضى على جمشيد .

ويظلم الضحاك الإيرانيين ، ويقتل أبناءهم ليطعم بأدمغتهم ثعبانين كانا على كتفيه ، ويثور عليه الناس ، ويلى عرش إيران أفريدون ، من نسل جمشيد ، فيحارب الضحاك ويهزمه ويأخذه مقيداً فيلقى به على جبل دماوند ، ويخلص الإيرانيين من شره .

وجلس أفريدون على عرشه ، واعتصب بالتاج ومن حوله ملوك الأوساط والأطراف ، وأسارير وجهه تبرق فقال : « شكراً لله فقد أراح البلاد والعباد من شر الضحاك ، فقضى عليه بالهلاك ، وطهر الأرض من خبثه ، وأخلاها من جوره وسحره ، وبدّلكم به من يحمى حماكم ، ويعدل فيكم ، ويحسن إليكم ، وينعم عليكم ، ولا يدخر ممكناً فى النظر لكم » . فارتجت الأرض بالسرور وامتلأت شكراً وثناء ، كما امتلأت السماء دعاء ، وانصرف الناس إلى أعمالهم ، فعمرت الأرض وزادت الغلات وعم الرخاء ، واحتفلوا بيوم ارتقاء أفريدون العرش وهو عيد المهرجان ، أى محبة الروح .

وكان هذا أول الخريف .

* * *

وفى هذين العيدين يجلس الملك لسماع ما يرفع إليه شعبه من شكاوى ، منه ومن ولاته وقضاته . وكان الملك يأمر بالنداء قبل قعوده بأيام ليتأهب الناس لذلك ، فكان كل متظلم يحضر شكايته ، وكل خصم يعد دفاعه ، وكثير من الناس يفضون ما بينهم من منازعات خشية عرض أمرهم على الملك . وكان رجال الملك يقفون على أبواب القصر ليمكنوا للناس دخوله ، وقد فرضت عقوبة شديدة على من يعترض أحداً فى دخوله قصر الملك أو يمنعه من ذلك . فإن على الملك أن يرفع عن رعيته الظلم ، مهما يكن مصدره ، فى هذين العيدين اللذين خلّص الله فيهما إيران من الشيطان ومن الضحاك ، وكان المنادون ينادون : « من حبس رجلا عن رفع مظلمته فقد عصى الله وخالف سنة الملك ، ومن عصى الله فقد أذن بحرب منه ومن الملك » .

وتنظر شكاوى الناس ، فإذا كان منها ما يخاصم فيه الملك ، تنحى هذا

عن نظرها ، ثم رأس المحكمة الموبدان موبد . ويقوم الملك مع خصمه فيجثوان بين يدى الرئيس ، ويقول له الملك : إن الله قد اصطفاك اليوم لتحكم بيننا باسمه ، فإذا خشيت الملك ولم تعدل فى حكمك فإنك تغضب الله ، وإذا راعيت العدل ، وكان الملك ظالماً فحكمت عليه فإنك تغضب الملك ، والله أحق أن تخشاه ، ولتكن جديراً بالموقف العظيم الذى تقف .

ويقف الموبد فيثنى على الملك ويدعو له بالخير ويقول له إن الله إذا أراد بعباده السعادة فإنه يولى عليهم ملكا تجرى على لسانه الآيات التى ذكرت ، فإنك تدعو إلى العدل واتباع أمر ربك ، والله خير العادلين .

وينظر القاضى الشكوى ، فإن كان الملك مخطئاً حكم عليه بتعويض خصمه ، وإن كان الملك مظلوماً حكم على خصمه ، حتى لا يجرؤ الناس على اتهام الملك بالباطل .

وبعد ذلك يجلس الملك ليفصل فى ظلامات الناس ، وذلك كى يكون الإيرانيون فى هذين العيدين سعداء ، منشرحة صدورهم بالعدل ، راضية نفوسهم عن الملك .

روزتير

وقامت الحرب بين الفرس والترك ، وظفر هؤلاء بإيران ؛ وقد اصطلح الملكان ، أفراسياب ومنوچهر ، على أن يأخذ ملك إيران رمية سهم من بلاده ليحكمها . واشترك الملاك اسفندارمذ فى صنع النشابة والسهم ، وأمر منوچهر أرش ، وهو من رجال الدين الأذكياء ، بأخذ القوس ورمى السهم ، فقام وتعرى وقال : أيها الملك وأيها الناس ، أنظروا بدنى فإنى برىء من كل

جراحة وعلة ، وإنى موقن بأنى إذا رميت بهذه القوس تقطعت إرباً وتلفت نفسى ، وقد جعلتها فداءاً لكم . ثم تجرد ومد القوس بما وهبه الله من القوة ، وأطلق السهم فسار فى الجو ، وحمل الملائكة السهم مسافة ألف فرسخ ، واصطلح الملكان على تلك الرمية . أما أرش فإنه قد هلك بعد أن رمى ؛ وهكذا عاد لإيران استقلالها .

واتخذ الفرس عيداً لهم فى هذا اليوم الذى تخلصوا فيه من أفراسياب ملك الترك ، وعادت السيادة الكيانية على بلاد إيران ، وهو يوم روزتير ، أى يوم الرمية ؛ الرَمية التى حررت إيران من الترك .

٢٩
أخوان

كان أحدهما يعمل فى حاشية السلطان ، ويتمتع بالجاه والنفوذ ، ويعيش بغير كد ولا عناء ، وكان الآخر فقيراً يعمل بذراعيه طول يومه ليحصل على قوته .

قال الغنى لأخيه الفقير : لِمَ لا تدخل فى خدمة السلطان لتستريح من الكد والعناء ؟

فقال الفقير لأخيه الغنى : لِمَ لا تكد أنت وتخلص نفسك من ذلة الخدمة ؟

(كلستان)

٣٠

الملك الظالم والدهقان

كان على حدود بلاد الغور رجل جبار ، أوتى من القوة والجرأة ما مكنه من أن يملك هذه الناحية ، وقد أولع باغتصاب حمير أهل القرى ، فكان يأمر بالاستيلاء عليها ، فيحملها فوق طاقتها ولا يطعمها ، فكانت تهزل ثم تهلك . وهكذا السفلة إذا الزمان رفعهم درجات ملأوا قلوب الفقراء غماً وكمداً . . . وهكذا الوضيع إذا الزمان رفع عماد بيته ألقى القاذورات على ما تحته من أسقف الجيران . . .

وقد سمعت أن هذا الملك خرج للصيد يوماً ، فلقى غزالا فسار على أثره ، حتى ابتعد عن حاشيته ، وأرخى الليل سدوله ، فضل طريقه ، ووجد نفسه فى قرية ، فلم ير بداً من المبيت فيها .

***

ونزل الملك من على حصانه ثم ربطه واستعد لينام ، ولكنه رأى رجلا ومعه حمار قوى ، يقدر على حمل الأثقال ولا يبدو منه تراخ ولا كلال ، وقد أمسك صاحبه بعظم وأخذ يدق به عظامه ، فى قسوة لا تحدها رحمة ، وشدة لا تعرف ليناً ؛ والحمار يئن من كثرة ما أصابه من أذى ، ويتلوى من

فادح الضربات ، ولكنْ ليس من يرحمه أو يرفق به . فصاح الملك على الدهقان :

أصخرة أنت لا تحركك تأوهات هذا الحيوان الأخرس وقد أعجبتك قوتك فرحت تصب عليه عذابك صباً ، كأنى بقلبك قد قُدَّ من صخر ، أو كأنى بك وقد ذهب عقلك فغاب عنك سوء ما تقترف . . .

فلما سمع الرجل قول الملك صاح فى وجهه قائلا : إنى لم أضرب حمارى قسوة منى عليه ، أو رغبة منى فى تعذيبه ، ولست أقدم على ما ترى حماقة أو جهلا ، وما دمت يا صاحبى تجهل أمرنا فمن الخير لك أن تدع ما لا يعنيك ، فإنك لو عرفت الحقيقة لأدركت أن ما رأيت لا يجانب الصواب ، ولا هو من الزلل .

* * *

لم يعجب الملك بهذا الكلام ، وأراد أن يتبين الحقيقة من الرجل ، أليس هو الملك ومن واجب الملك أن يقف على أحوال رعاياه ؟ والرجل يجهل أنه الملك فهو سيصدقه القول ، وسيوقفه على الحقيقة سافرة . . . فقال تعال حدثنى عن ضربك حمارك هذا الضرب المبرح ، فإنى جد راغب فى الاستماع إليك ، وما أظن أنك سكران ، ولكنى أخاف أن تكون بك جِنة . فرفع الرجل نظره إليه وقال : حسناً أيها التركى ، فإنك لا تعرف من أمور بلادنا شيئاً ، هلاّ أتاك حديث الخضر وقد ركب السفينة مع موسى فخرقها ، ولم يقل أحد إن الخمر كانت تلعب برأسه أو إنه مجنون ؟

قال الملك : ولكنك أيها الفظ الغليظ القلب لم تدر أن الخضر قد خرق السفينة ليعيبها ، فإنها كانت لمساكين يعملون فى البحر ، وكان من ورائهم ملك

يأخذ كل سفينة غصبا ، وكانت القلوب منه واجفة ، والناس منه فى رعب ، وما أشك أنك توافق على أن سفينتك معيبة وهى معك خير منها سليمةً وهى فى يد الملك الغاصب .

فضحك الدهقان عالياً وقال : إذاً فأنا على حق يا سيدى ، فإنى لم أكسر رجل حمارى عن قسوة منى أو جنة بى ، وإنما فعلت ذلك حتى لا يقع فى يد ملكنا الظالم ، فإنه يأخذ كل حمار غصباً ! والحمارىَ معى وهو أعرج خير من فقده سليماً ليأخذه الملك فيحمله ما لا يطيق ولا يطعمه فيهلك . ألا تعلم أنه يأخذ حميرنا ويظلمنا وأنه سيجازى يوم القيامة حين يحيق المكر السيئ بأهله ؟ وسترى أن هذا الذى يحمّل الحمير ما لا تطيق من أحماله سيحمل أثقالها جميعاً يوم الحساب ، فينوء بها ، ويتردى فى جهنم وبئس القرار . إنه ملك شقى ، يحسب سعادته فى ظلم الناس واغتصاب الحمير . . . أدع الله معى أن يُهلك هذا الملك الظالم ، فإن فى موته الخلاص من الظلم ، والأمن من الخوف . . . ألست ترى معى أنه سيئ الطالع ، لا يسعد إلا فى شقاء الناس ، ولا ينعم بالسلطان إلا بفزع رعاياه منه ، ونسى أن محبتهم قوة ، وأنها خير ما ينعم به الملك العادل ؟

* * *

سمع الملك هذا الكلام فأُرتج عليه ولم يحر جواباً ، فاستأذن صاحبه ، ورقد بجوار حصانه يريد أن ينام . ولكن كيف يأوى النوم إلى جفونه وقد سمع من الرجل ما أقض مضجعه ، ونفى الكرى عن عينيه ؛ إن قلبه متعب وإن روحه قلق ، فإنه يظلم الناس ، وهم يخافون بطشه وغضبه ، هم منه كالخضر يخرق السفينة حتى لا يغصبها الملك الظالم . . . وراح يعد النجوم إلى

أن كان السحر ، وغردت الطيور مستقبلة الصباح فرحة مستبشرة ، فنهض حزين الفؤاد ، كاسف البال ، فركب حصانه وأخذ يتأمل فى الأفق ، حسرةً واستغفاراً .

وأخذ رجال الحاشية يبحثون عن ملكهم ، وفى الصباح الباكر اهتدوا إلى آثار حوافر حصانه فتبعوها إلى أن وجدوا الملك وقد ركب حصانه ووقف ينظر إلى الفضاء ، شارد اللب ، حائر النظرات . وأقبلوا عليه وتجمعوا من حوله ، مظهرين له الطاعة والخضوع والولاء . وأخذ الملك يتحدث إليهم وهم يسمعون ، ثم مدت الموائد ودارت كؤوس الراح ، وانطلق أهل الغناء بعذب الألحان ؛ وفى هذا الجو الضاحك ، اللاهى ، الساخر ، تذكر ما كان من حديث الدهقان معه بالأمس ، وما بدر منه من الغلظة والخشونة والعيب فيه . وجرى الجند يبحثون عن الدهقان فى كل مكان حتى ظفروا به ، فجروه مقيداً وألقوه أمام الملك .

ولم ينتظر الجلاد أمراً ، بل إنه أخرج السيف من غمده ، ورفعه يريد أن ينقض به على رقبة المسكين فيزهق روحه ، وأبصر الدهقان نفسه أمام الرجل الذى صارحه القول بالأمس ، فإذا به الملك الجبار بعينه ، وألفى نفسه يائساً من حياته . إنه فى يد الملك الظالم ، الغاضب وقد تطاول عليه ، وإنه يرى الجلاد يستعد للضربة القاضية :

ألا أيها الملك ترفق ، فما قتلى بمجديك نفعاً ، ولا هو بمسكت عنك ألسنة الخلق ؛ ولئن قتلتَ نفساً بريئة بغير نفس ولا ذنب فإنك لن تستطيع أن تقتل الناس جميعاً ؛ ولا تحسبن حديثى معك بالأمس يحل لك سفك دمى ، فإنى قد حدثتك بما فى قلوب رعاياك من سخط عليك وبغض لك ، وأولى لك ثم أولى أن تتدبر الأمر ، وتعدل فى الناس .

ألا أيها الملك ترفق ، فماهذه الحاشية التى من حولك بمخلصة لك ، ولا هى راضية عنك ، إنما جمعهم حولك الخوف منك أو الطمع فيك ؛ ولقد رأوك تأكل التراث أكلا لمـا ، فهم يأكلون معك ، وتحب المال حباً جماً ، فهم يحبونه معك ؛ ولو والله عزم الأمر ، وذهب عنك الحول والطول ، لانفضوا من حولك ، وهم إن تقفوك بعد هذا يكونوا أعداءً لك ، ويبسطوا إليك أيديهم وألسنتهم بالسوء ؛ فلا تعملن برأيهم ، فما يسـكت ألسنتهم عن قول الحق فيك غير ما أنت عليه من قوة ، وما لك عليهم من سلطان .

ألا أيها الملك ترفق ، والخير لك أن تتدبر أمرك ، وتندم على ظلمك الناس ، وتستغفر ربك ، ولئن وجدت فى نفسك من القوة ما يتيح لك سفك دمى فغـداً تقف أمام الواحد القهار ، وقد زدت وزراً على ما يثقل كاهلك من الأوزار . ولتُسألن عن روحى ماذا جنت عليك لتزهقها . ولقد رأيتك بالأمس وقد عجزت عن إجابتى وأنا بشر مثلك ، بل أنا عبد من عبيدك ، فكيف بك غداً وأنت أمام ربك المنتقم الجبار . . .

* * *

وتهامس الحاضرون من حاشية الملك ، وعابوا على الدهقان جرأته ونادوا بقتله . أما الملك فرفع رأسه إلى السماء ، واستغفر ربه ، ثم فكّ قيد الرجل بنفسه ، وضمه إلى صدره وقبّله :

يا سيدى إنى وجدت فيك خير الناصحين ، وإن لك القرية التى أنت فيها ، والتى هدانى ربى يوم حللت بها ؛ فأنت منذ اليوم واليها ، وأنت منى الأخ الصديق والولى الحميم .

ثم نظر إلى حاشيته وقال: حقاً إن الملوك لايجدون فى أصدقائهم وحاشيتهم من يجرؤ على قول الحق لهم ، فإن الصديق لا يرى عيوب صديقه ، وعيوب الملك حسنات عند بطانته ، والعاقل من يعرف صفاته من خصمه ، لأنه لن يعرفها من صديقه .

(بستان)

٣١

الصوت المنكر

كان مؤذن فى مسجد سنجار قد تطوع للأذان ، وكان صوته منكراً تنفر منه الأسماع ، فسمعه الأمير الذى بنى المسجد فأشفق على الناس من سماعه ، فناداه وقال له : يا صاحبى إن بالمسجد مؤذنين أنقد كلا منهما خمسة دنانير فى الشهر ، وقد رأيت أن أعطيك عشرة دنانير على أن تذهب إلى مسجد آخر .

فانتقل المؤذن إلى مسجد آخر ، ولكن لم يلبث أن جاء إلى الأمير وقال :

ذهبت يا مولاى إلى مسجد كذا وأذنت فيه ، فعرض على أمير الجهة عشرين ديناراً على أن أترك المسجد ، فلم أقبل العرض قبل أن أسألكم ، فإنكم بهذا تفقدون فى شخصى كثيراً . . .

فابتسم الأمير وقال :

حذار أن تتركهم ، فإنهم سيعرضون عليك خمسين ديناراً !

(گلستان)

٣٢
القط والفأر

كان بكرمان قط ضخم الجثة ، حاد المخالب ، شديد الافتراس ، كأنه تنين. كانت بطنه منتفخة مثل الطبل ، وخده مصعراً مثل التُرس ، وذيله طويلا كذيل الأسد ، وأظافره قوية كأظافر النمر ، كان هذا القط يخيف الفهود إذا سمعته بموء ، وكانت الأسود تولى هلوعة إذا رأته يتحفز للصيد .

وقد اختفى هذا القط ذات يوم فى خمارة وراء دَن الخمر ، كما يختبىء اللص فى الصحراء ؛ إنه يريد صيداً . فرأى فأراً يخرج فجأة من ثقب فى الحائط ، ويصعد الفأر إلى الدن وينظر إلى الخمر فتشوقه رائحتها للشراب ، فيقبل ويشرب حتى يفقد صوابه . فلما لعبت الخمر برأسه أخذ يتحدث مختالا مزهواً : أين القط أقطع رأسه ، وأحشو بالتبن جلده ، ألا ليته يقوى فيخرج لملاقاتى فى الميدان .

فلما سمع القط هذا الكلام ، وعرف ما ملأ نفس الفأر من الغرور ، استعد لأكله ، فإنه سكران ثرثار . وقفز القط فأمسك الفأر بمخالبه ، فبكى هذا وتضرع واعتذر : هلا عفوت عن مسكين أفقدته الخمر صوابه ، وأطار الغرور رشده ، وقد وقع بين يديك لا حول له ولا قوة ، فاقداً كل شىء إلا الأمل فى عفوك ؟ وهكذا راح يلتمس العفو من القط الغاضب .

لم يفكر القط فى تأوهات الفأر ، ولا رق قلبه لضعفه ، وقد أعجبه لحمه ،

فسال لعابه وأقبل عليه غير آسف فنهشه وازدرده ازدرادا، قائلا : كفاك خداعاً ومكراً، فقد فضحتك نواياك .

***

وشبع القط ومسح فمه بلسانه ، وخرج من الخمارة إلى المسجد فتوضأ وأخذ يتلو الأوراد كأنه من أهل الصلاح الزاهدين ، ثم سار إلى المحراب فجلس واستغفر ربه وتاب وأناب وأقسم ألا يأكل فأراً بعد ذلك ، وأخذ يدعو ربه نادماً على أكله الفيران الضعفاء ، نادرا مَنّين من الخبز صدقة وتكفيراً عن ذنبه ، ثم أخذه الورع وتملكته التقوى فأجهش بالبكاء .

وكان وراء المحراب فأر يسترق السمع ، فأعجبه ما سمع من القط ، وراح يبشر إخوانه بندم القط وتوبته ، ويحدثهم عن وضوئه وصلاته ودعائه وأنه أصبح مسلماً عاملاً ، يؤدى الفرائض ويخشى الله .

وفرح الفيران بما بشرهم صاحبهم به ، وأخذوا يفكرون فيما يعملون لهذا القط الذى اهتدى ، جزاء هدايته ومحبته لهم ؛ فأجمعوا على أن يرسلوا سبعة من زعمائهم ليعبروا له عن صادق مودتهم وخالص وفائهم ، وحمل كل منهم من الهدايا والطرف أشكالاً وألواناً . وسار الوفد إلى حيث القط فوضعوا أمامه هداياهم ، العنب والتمر والجبن واللبن والزبد والخبز والأرز وعصير الليمون . وتقدم رئيسهم فأعرب للقط عن إعجاب الفيران بسلوكه وهدايته ، ثم قال إنه حضر مع إخوانه بهذه الهدية عرفاناً بالجميل ومبادلة للصداقة والولاء .

وكان القط قد أمضى أياماً فى الصلاة والعبادة ، صائماً عن أكل الفيران ؛ فلما رأى وفدهم قد جاء عنده طائعاً مختاراً ، تبسم ورفع رأسه للسماء وقال : حقاً ، « وينزل لكم من السماء رزقاً » ، وقد رزقه ربه جزاء صبره وعبادته .

ثم نظر إلى الفيران السبعة قائلا : « تقدموا أيها الرفاق فإنا تربطنا منذ اليوم أوثق الصلات » ، وتقدم الفيران ، مرتعدة فرائصهم ، لا تكاد أرجلهم تحملهم . وأقبل القط يستقبل ضيوفه وحلفاءه ، متئد الخطى ، ثابت النظرات ، هادىء النفس ، حتى إذا صار منهم على مسافة قصيرة ، قفز فأمسك خمسة منهم ، فى كل من مخلبيه إثنان وفى فمه واحد ، وأما الفأران الباقيان فقد ملئا رعباً وذعراً ووليا هلعين . إن القط قد عاد إلى طبعه ، وسارا إلى الفيران ينبئان بما جرى .

***

وحزن الفيران فلبسوا سود الثياب ، ووضعوا فوق رؤوسهم التراب ، فقد فقدوا خير زعمائهم ، ورأوا آمالهم فى الأمن والسلم تنهار أمامهم ؛ إن الطبع غلب التطبع ، وعاد القط مفترساً وعدواً للفيران مبيناً ، فيه الهلع والقتل والعذاب ؛ فقرروا أن يذهبوا إلى ملكهم ليرفعوا شكواهم مما لقوا من القط . وتجمعوا فركبوا خيولهم وشمروا سواعدهم وحملوا أسلحتهم وساروا إلى حيث ملكهم قد استوى على عرشه ، فلما رآهم أعجب بهم وتبسم ، فتقدم القادة بالتحية :

« إنا جئناك يا ملك ملوك الزمان ، لكى تنتقم لنا من القط ، غرر بنا وسخر منا ثم قتل خمسة من عظمائنا ، لقد كان يأكلنا فرادى ، أما اليوم فقد أسلم وأخذ ينهشنا خماسى » .

فلما سمع الملك هذا الحديث استشاط غيظاً وقال : إنى ملاق القط ، وسأجعله أحدوثة الزمان . ونظم الملك جيشاً من فيران خراسان ورشت وجيلان تعداده ثلاثة وثلاثون ألف فأر ، وقد قسم أفواجاً ؛ وسار الفيران وفى خصورهم السيوف مسلولة ، وفى أيديهم الرماح مشرعة ، وساروا سراعاً خفافاً كأنهم جوارح الطير .

وكان منهم فأر حكيم عاقل شجاع ، فأشار على الملك أن يوفد رسولاً إلى القط ، حقنا للدماء ، يخيره بإنذار نهائى بين الخضوع التــام أو يقبلها حرباً لا هوادة فيهــا . لا تبقى ولا تذر .

***

وسار سفير الفيران فأنبأ القط بما يدبر له ، وخيره بين الاستسلام أو تحمل نتيجة الحرب ، فأجابه القط بأنه لن ينتقل من كرمان ، ولن يخضع لملك الفيران ، ولتفعل بين قوته ما تشاء .

وفى الخفاء أرسل إلى القطط من أتباعه فى أصفهان ويزد وكرمان ، وأمرهم بالتجمع للقاء جيش الفيران . وسار الجيشان إلى الميدان ، الفيران من كوير والقطط من قهستان . والتقى الجمعان ، ودارت رحى الحرب الضروس ، وكانت الشجاعة من الطرفين تؤجج أوراها وتبعد نهايتها ، وحدثت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وأبصر القط نفسه يكاد يغلب ، فتحفز وهجم على قلب جيش الفيران ، فأكثر فيهم القتل ، ولــكنه جرح . وكان فأر ذكى قد تبعه فوجد رأسه منكسا من فوق حصانه ، فنادى الفيران وحضهم على المضى فى القتال ، فكبروا باسم الله وهاجموا القط ، فغلبوه وأوثقوا بالحبال قيده ، وهكذا تم لهم النصر .

***

وسار ملك الفيران مزهواً ، وقد ركب فيلاً ضخماً ومن خلفه جنده بموسيقاهم ، يعزفون أناشيد النصر ، حتى إذا جاءوا الميدان أمر الملك بنصب المشنقة ، وبشنق القط ، ثم التفت إلى هذا فأشبعه سباً وسقط قول ،

أما الفيران فأخـذوا ينظرون إلى القط فى خبث وقد أصبح ذليلاً لا شفيع له .

وضاق صدر القط حتى كاد يتميز من الغيظ ، فجلس على ركبتيه وأخذ يقرض الحبال التى أوثقوا بها يديه ، حتى استطاع أن يفلت من قيده ، وهجم فأوقع الذعر فى نفوس الفيران فتفرقوا أشتاتاً .

واختبأ الملك وانفض الجيش ، ولحق القط بالملك فصرعه وهو فوق الفيل .

(كربه و موش . عبيد الزاكانى)

٣٣

أنوشروان العادل

يحكى أن الملك أنو شروان ذهب ذات يوم فى رحلة يصطاد ، ولما حان وقت الغداء لم يجد ملحاً ، فأمر حاجبه أحد الغلمان أن يذهب إلى قرية قريبة ليحضر الملح ، فأمر أنو شروان بأن يشترى الغلام الملح بالنقود ، حتى لا يعطاه بالمجان فتخرب القرية .

فقيل له : أى خلل يصيب القرية من حفنة ملح ؟

فقال :

« هكذا بدأ الظلم فى الدنيا ، بدأ قليلا جداً ، ثم أخذ يزيد الحكام عليه ، إلى أن بلغ الحد الذى نراه »

(كلستان)

٣٤
القرد الحكيم

حينما عمل أردشير ، مؤسس الأسرة الساسانية ، على توحيد دويلات ملوك الطوائف فى إيران ، لم يرد ملك طبرستان ، جشنسف شاه ، أن ينضم إليه ، وقد كتب إلى تنسر وزير أردشير يسأله النصح ، فكتب إليه تنسر يقول :

إنك حين تدعو إلى الفُرقة التي نهض أردشير لتلخيص البلاد منها ، وإلى الاستمساك بفض العروة الوثقى التى أمر الله بهـا أن توصل ، إنما تدعو إلى تقطيع أوصال إيران تقطيعاً ، وتعمل على أن يقوى الأعداء عليها ويظفروا بها ، فإن الفرقة إذا دخلت أرض أمة ولىّ الخير منها ، ووجد الشر فيها مرتعه الخصيب .

ولقد كنا أمة تخضع لملوكها الأقاليم السبعة ، ولم يكن ملك أجنبى يجرؤ على الخروج على ملوكنا . وكان آخر عهدنا بهذه السيادة أيام الملك دارا بن چهرزاد ، الذى لم يكن ملك فى الأرض أعلم أو أحكم أو أطيب ذكراً منه ؛ وقد خضعت له البلاد من الصين حتى مغارب الروم ، وكان الملوك تابعين

له ، يقدمون له الهدايا ويدفعون له الجزية عن يد وهم صاغرون ، وكانوا يسمونه تغولشاه .

وإنى أحدثك عن سبب البلاء الذى أصاب هذا المُلك الواسع ، فبدده طوائف وكان جميعاً ، وأذله بعد عزة ، والذى لا تزال آثاره باقية فينا ، والذى يعمل ملكنا أردشير على رفعه ، وإعادة مُلكنا عزيزا كما كان ، فاسمع وعه ولا يغرنك الغرور .

* * *

كان لدارا غلام اسمه پيرى ، اختصه بعطفه وقرّبه منه ، فكان يؤاكله ويشاربه ويصاحبه فى رحلاته ؛ وقد أخذ پيرى يتدخل فى شئون الدولة ، وكثيراً ما كان دارا يتأثر بقوله فيعمل به . وكان للملك وزير محنك ، أمضى عمره الطويل فى خدمة الملك ، وكان راجح العقل ، فصيح اللسان ، حصيف الرأى ، تقياً أميناً ، حميد الخلق ، اسمه رستين ، كأنه هو الذى قصده الشاعر حين يقول :

لقد طبن فى الدنيا مناقبه التى بأمثالها كتب الأنام تؤرخ

وكان پيرى يحسده على علو درجته ، ورفيع مكانته ، وثقة الملك فيه ، وتاقت نفسه إلى أن يشغل مكانه فيخلو له الجو ويحكم بأمره . فأخذ يشهر به ويطعن عليه ، حتى بلغ الخبر رستين .

* * *

فلما علم رستين أن پيرى قد أطلق لسان السوء فيه ، غيرةً وحسداً ، ذهب إلى الملك دارا بن چهرزاد ، فقبل الأرض ودعا له ، ثم استأذن فى

الكلام ؛ وكان من تقاليدهم أن لا يصارح الرجل ملكه بما يريد أن يقول ، بل يتحايل على بلوغ الغاية من كلامه بقصة ترمز إلى ما يرمى إليه ؛ فلما أذن له الملك قال :

سمعت يا مولاى عن جزيرة بها مدينة يحكمها ملك قد ورث الملك عن آبائه ، كان يحب شعبه وكان شعبه يبادله هذا الحب ، وكان بجوار هذه المدينة مدينة أخرى يسكنها القِردة ، وكان هؤلاء يحيون فى مدينتهم الصغيرة فى خفض من العيش وسعة من الرزق وهدوء البال ؛ وكان عليهم ملك يستمعون لرأيه ، ويهتدون بهديه ، ولا يصدرون إلا عن أمره . وقد جمعهم ملكهم ذات يوم وقال لهم : إن علينا أن نهاجر من هذه المدينة إلى بلد أمين .

أرى تحت الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

فقال القردة : إن على ملكنا أن يبين لنا سبب هذه الهجرة ، وأن يطلعنا على ما يبررها ، حتى نأخذ الرأى عليها ، فإذا رأينا الخير فيها عملنا بها .

قال الملك : إنى لن أطلعكم على سبب هذا الرأى ، فإن بلدكم هذا قد طاب لكم ، إنه فسيح محبَّب إلى القلوب ، كثير الخيرات . وأنا واثق بأنكم لو اطلعتم على ما عُلمت لن تقيموا له وزناً ؛ ولكنى وقد أوتيت من الفضل والرأى ورجاحة العقل أكثر مما أوتيتم ، آمركم أن تقبلوا نصحى وأن تتبعونى ؛ ولست أرى عجباً ، فإن الهجرة والجلاء من سنن الأنبياء الذين كثيراً ما هاجروا وجلوا عن بلادهم ؛ لأن العاقل إذا رأى تباشير الشر ومناكير الضر تدنو منه ومن شيعته ، فاستهان بما يرى ، وآثر البقاء فى وطنه ، كان جديراً بأن يرمى بالجهل والكسل :

قال القردة : لقد مهّد الملك لقبول نصحه تمهيداً حسناً ، حفزه على ذلك كمال رأفته وفرط عاطفته نحو رعاياه ، ولكننا ندعوه ألا يبالغ فى القول ، إلا إذا وقعت الواقعة ومسنا الزمن بضر وخيم ، وإن قلوبنا لن يهدأ خفقانها حتى يحدثنا ملكنا عن سبب أمره بالرحيل ؛ وحينئذ لن يجد منا غير الانقياد لأوامره واجتناب نواهيه ، موفين له حق شفقته بنا ورحمته علينا .

قال ملك القردة :

إذاً فاعلموا أنى علوت بالأمس شجرة تشرف على المدينة المجاورة ، فرأيت فى قصر ملكها خروفاً ينطح خادماً من خادمات القصر . وقد نصح الحكماء بترك جوار المتعادين ، وأنا لا أريد أن أخالف رأيهم ولا أن أتخذ نصحهم لغوا .

فنظر القردة بعضهم إلى بعض ضاحكين ساخرين من قوله ؛ ثم قالوا : إنك ملك علينا منذ سنين عددا ، نقتدى بك ونراك أكثرنا عقلا وأبعدنا تجربة ، فقل لنا ماذا علينا من خروف ينطح جارية فى قصر جارنا الملك ؟ فقال ملك القردة :

فيه هلاككم ، وهو يسير « إذ يبدأ بكم ، ثم يهلك من بعدكم أهل هذه المدينة ويقتل ملكها وتصبح خرابا .

فعجب القرود أشد العجب من قول ملكهم ، وراعهم مايجول بخاطره ، فقالوا له : إنا لم نعهد فيك ما نرى ، ولسنا نشك فى أن عين سوء قد أصابتك ، فجعلت على عقلك غشاوة ، فمر يا مولانا بالأطباء لعلاجك ، ترجع إلى صوابك ولا تفقد عرشك .

فقال ملك القردة :

صدق الحكماء : فإن « من عدم العقل لم يزده السلطان عزاً ، ومن عدم القناعة لم يزده المال غنى ، ومن عدم الإيمان لم تزده الرواية فقها » ، إنى

أراكم فى شك مما أقول ، ولقد تبينت رأيكم فىّ ، ونظركم إلىّ ، فالأولى بى أن أذهب إلى الطبيب بنفسى ، وأن أبعد عنكم مغبة المرض .

وترك مُلكه وفارقهم فوراً .

* * *

لم يمض على هذا زمن طويل حتى كانت الجارية ، فى مدينة الآدميين ، تخرج من قصر الملك ، راكضة وفى يدها قارورة ملؤها الزيت ، وفى اليد الأخرى عود مشتعل بالنار ، فجرى الخروف وراءها يريد أن ينطحها كعادته ، فأرادت الجارية أن تدافع عن نفسها ، فرمته بما فى يدها ، وهكذا اجتمع الزيت والنار وصوف الخروف ، فاشتعل المسكين وأخذ يجرى من باب إلى باب ومن قصر إلى قصر ، إلى أن دخل قصراً لرجل من أركان الدولة ، كان مريضاً فارتمى عليه فحرقه .

وأبلغ جماعة من أهل المدينة الملك بما أصاب الرجل من حروق ، فأرسل فى طلب الأطباء ، فلما اجتمعوا ورأوا المصاب اتفقوا على أن لا دواء لجراحه التى خلفها الحرق غير مرارة القردة . فقال الملك إن هذا يسير ، ثم أوفد صياداً ليصطاد قرداً من المدينة المجاورة ، لينتزع الأطباء مرارته ويعالجوا الرجل . وذهب الصياد واصطاد بالغدر والحيلة قرداً ، ولكن القردة تجمعوا من حوله وقتلوه ثم مزقوه إرباً إربا . وبلغ الأمر الملك فغضب وركب وذهب على رأس فرقة من حرسه لقتال القردة ، فأجرى فيهم مقتلة عظيمة ، ثم عفا عمن بقى حياً منهم .

* * *

وتقدم قرد نحو رجل من حاشية الملك وسلم ثم قال : لقد عشنا فى جواركم

سنين طويلة لم يصبنا منكم شر ، ولامسكم ضر منا ، وكان كل منا يعيش بما قدر له من رزق ، على طريقته التي استنها لنفسه ، فبأى فكرة أقدمتم على هلاكنا ، كأن شوك اللوم قد أصاب عين المروءة فيكم ، فسخرتم من حقوق الجوار ؛ وغفلتم عما تلقون فى الدنيا من اللوم وفى الآخرة من الغرم .

يا جائرين علينا فى حكومتهم   الجور أعظم ما يؤتى ويرتكب

فقص الرجل على القرد ماكان من أمر الجارية والخروف والنار ومن احترق بها ورأى الأطباء فى الدواء وقتل الصياد وانتقام الملك له . فاغرورقت بالدمع عينا القرد وقال : « حقاً إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة .

أمرتكمو أمرى بمنعرج اللوى   فلم تستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

يا صاحبى : إن سيل القدر قد جرفنا فأغرقنا ، وغداً تطحنكم رحاه فإذا أنتم هشيم تذروه الرياح »

قال الرجل : إنها كبيرة دعواك ، فهلا أقمت الحجة عليها ؟

قال القرد : بلى ، فقد كان علينا ملك ذو عقل وكياسة ، وفضل ودراية ، وكان يحيط خبراً بعجائب الدنيا وغرائب السماء ، وقد نجا من آلاف المكامن ، بثاقب رأيه ومبين عقله ، ولم يقع فى شباك الدنيا ولا غره غرورها ؛ ثم قص على الرجل ما رأى ملك القردة فى قصر ملك الآدميين ، وما جرى بينه وبين القرود ، ثم قال : إنه تركنا وولى ، لأننا لم نسمع نصحه ، وها نحن نرى صدق ما رأى ، أما أنتم فتوقعوا هلاككم غداً معشر الآدميين .

* * *

كان الرجل يصغى إلى القرد متعجباً ، فلما ذهب إلى المدينة قص ما سمع ، وحدث من هذا القول إرجاف فى أسماع وأفواه الخاص والعام حتى بلغ الملك . فأمر هذا بإحضار أول من نقل حديث القرد إلى المدينة ، وكان من أعيانها وأهل الاعتبار فيها ، فأتى الرجل القصر مع أقربائه وإخوانه ؛ ويشاء القدر أن يكون الملك غاضباً سقيم المزاج حين مثل الرجل بين يديه ، فأمر بقتله مع تعذيبه عذاباً أليماً . فلما سمع أهله أمر الملك عادوا إلى المدينة فتجمع الناس من حولهم وقصدوا القصر ، وأمسى الشر عرياناً ، ولم يكن من وسيلة لإخماد الفتنة والقضاء على الشر ، وانتهى الأمر بقتل الملك ، وتفرق الناس من بعده أشتاتا ، وخربت المدينة .

* * *

فلما قص رستين على تغولشاه قصة القرد الحكيم ، سأله : لأى شىء قصدت بهذه القصة ؟ فعرض رستين أمره وأمر پيرى وماقد تستتبعه الخصومة التى شنها هذا عليه من فساد فى الأرض ، والتمس من ملكه أن يخليه من عمله ، فإن فى هذا العزل مصلحة الوطن ، ولو أنه ثقيل على الملك أن يفعله . قال تغولشاه : « لا تتحدث عن هذا الأمر فإنى سأكفيك شره ، ولم تمض أيام حتى لقى پيرى حتفه مسموماً » . أما تغولشاه فقد وهن عظمه ، واشتعل بالشيب رأسه ، واقتربت منه المنية رويداً رويداً حتى اخترمته .

ذو التاج يجمع عدة وعديداً والموت يبطش بالألوف وحيداً

(وأعقب تغولشاه ملوك) إلى أن كان حكم دارا الثالث ، وتجمع الناس من كل حدب وصوب يهنئونه بالعرش الذى علاه .

دول الزمان مناحس وسعود عود ذوى فيه وأورف عود

فإن دارا لم يكن أهلا لهذا الملك العظيم الذى ورثه عن أجداده ، ولم يكن يعرف قدر الرجال ، وقد نصّب أخاً لبيرى وزيراً له ، ولم يفطن إلى القول المأثور :

إذا كنتمو للناس أهل سياسة فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا على الذل ، إن الذل أصلح للنذل

فلما وجد الوزير الجديد نفسه مسيطراً على الدولة ، مسموع الكلمة فيها ، أخذ ينتقم لأخيه من الأمراء والرؤساء الذين كانوا أصدقاء لرستين ، ولم يكن أميناً فى نقل الأخبار لدارا الثالث ، فأخذ هذا يبطش بمن غضب عليه وزيره ، فتقلبت عليه قلوب الناس ، واضمروا له العداوة ، وقد أغفل سنن الأولين ، وعمل ببدعة وزيره الجديد .

فلما خرج الإسكندر يريد غزو إيران ، ركب دارا « أبلق التدهور ، وأمسك بيده عنان الكبرياء » ، فلما التقى بغازى بلاده ، انفض عنه فوج من أنصاره ، وانضم فوج آخر إلى عدوه ، ثم قتله رجاله ، وقد ندموا على ذلك ولكن بعد أن سبق السيف العذل .

***

قال تنسر لملك طبرستان جشنسف شاه :

هذا يا سيدى الأمير ما كان من أمر إيران حين ظهر الخلاف بين وزيرين

فيها ، بيرى ورستين ، ومنذ مقتل دارا الثالث ونحن لا نجد ملكا يحكم بلادنا جميعاً ؛ واليوم وقد أتيح لأردشير أن يوحد وطننا وديننا ، فما أجدرك بالإسراع إليه ، والمبايعة له ، وأخذ ولايتك منه ، وأن تحمد ربك على أن هيأ لنا أن نقضى على الفرقة والانقسام[١] .

٣٥

سر

كان رجل يكتب أسراره على ورقة ، وكان بجانبه رجل آخر يتابع النظر فى الورقة ، فتضايق الرجل وكتب :

إن رجيلا جاهلا ينظر فى ورقتي ويضطرنى إلى أن لا أكتب أسرارى .

فغضب جاره وقال :

إنى لم أنظر فى ورقتك .

فقال الرجل :

وأنا لم أكتب عنك شيئاً .

(جامع الحكايات)

---

(١) عن الترجمة الفارسية لكتاب ابن المقفع « تنسر » ، نشر مينوى ، طهران ، ص ٢٩ — ٣٨ . وقد لاحظ Darmesteter أن هذه القصة موجودة فى كتاب بنج تنترا السنسكريتى الذي نقل ابن المقفع عنه كليلة ودمنه (Journal Asiatique سنة ١٨٩٤ ص ٥٣٦) . وقد احتفظنا بقدر الامكان بالألفاظ العربية وبأبيات الشعر التى احتفظ بها النص الفارسى للكتاب .

٣٦

الدرويش والقاضى

ذهب درويش فقيه ، رث الثياب ، إلى مجلس القضاة ، ليسمع مناظرة لهم ؛ وكان الدرويش شغوفاً بالعلم محباً للشريعة ، فجلس فى الصف الأول ، حتى يحسن الإنصات ولا يفوته شىء . وأقبل كبير القضاة فرأى رجلا قبيح المنظر ، قذر الملبس ، قد تقدم الصفوف واتخذ فى صدرها مكاناً ، فنهره متأففاً . وجاء المعرِّف (الحاجب) فغضب أكثر مما غضب سيده ، فأمسك بالرجل ، وجذبه من كمه ، وامره بالوقوف . وراح المعرِّف يؤنب الفقير الدرويش على ما اجترأ من تخطى مرتبته واغتصب من مراتب الفقهاء . أفيرق أى رجل إلى الصدر ؟ أليس الناس درجات ، وأنهم بالفضل والقدر يتفاوتون كرامةً ورتبة ؟ وكيف يسوّغ عاقل لنفسه أن يجعل من نفسه أسداً ولم يعط مخالب الأسود ؟ وظل المعرِّف يكيل اللوم للرجل ، ساخراً منه ، هازئاً به ، حتى تعب من كثرة ما تكلم ، واكتفى بما لقى الدرويش من خجل وبما أنزل به من عقوبة التقريع .

أما الدرويش فقد نظر إلى القاضى ومعرفه متأوهاً زفرات كالنار تحترق ، وقد ترك مجلسه فى الصدر وذهب إلى آخر صف وجلس . هيهات أن يهبط من عليائه من تأخر عن الصدر مجلسه ، ومن أوتى العزة لا يخفضه أن يكون مجلسه المقعد الأخير .

* * *

وجاء الفقهاء فأخــذوا يتحدثون ، ثم بدأ الجدل بينهم فيما يعرضون له من القضايا ، كل يلقى بحجته ، ثم يستمع إلى رأى أصحابه . واشــتد الجدل ، وحمى وطيس النقاش ، وكثرت لم ؟ ولا نسلم ! وامتدت الرقاب وصاحوا بلا ، وبنعم . تحسبهم ديوك القتــال قد مدت رقابها ، وحددت مناقيرها ، ينقر بعضها بعضاً ، وأعملت مخالبها ليثخن كل خصمه ببــالغ الجراح . تراهم وقد أفقدهم الغضب وعيهم ، فـكان بعضهم يترنح من الغضب كأنه سكران ، وبعضهم يضرب الأرض بيديه كأن به مسًّا .

وأدى بهم الجدل إلى قضية لم يجد أحد منهم مخرجاً لها ، ولـكنهم ظلوا يتجادلون لجاجاً ، حتى التجت الأصوات .

* * *

فلما أيقن الدرويش أن القضاة قد أسقط فى أيديهم ، وأنهم جميعاً قد عجزوا عن حل ما عرض لهم ، قام من الصف الأخير ، ومشى مخترقاً الصفوف كأنه أسد العرين . فلما بلغ القضاة التفت إليهم وقال : عجبت لـكم يا صناديد الشريعة وياعلماء الفقه والأصول إنكم لا تدعمون بالحجة قولـكم ، ولـكنكم تتصايحون وتنفخون عروق رقابكم ، وما هكذا تساق البراهين ، ولا هكذا تحل القضايا . ثم عرض الدرويش لموضوع الجدل ، فصال فيه وجال ، فاقتنع القضاة برأيه كأنه قد أمسك القلم بيمينه ونقش به الحجج على قلوبهم .

وأقبل الفقهاء جميعاً يهنئون الدرويش بسعة علمه ، وحدة ذكائه ، واستقامة منطقه ، وجمال طبعه . وقد نظر إليه القــاضى الذى نهره وطرده

واستعان بالمعرف ليزبده تعزيراً ؛ وقد خيل للقاضي أنه غارق في الوحل لايستطيع منه حراكا ، بينما الدرويش يسوق حصان القول سبّاقاً إلى الميدان .

ونادى القاضي المعرِّف ، فخلع ثوبه وعمامته ، وبعث بهما معه ، مع الإنعام والإجلال ، إلى الدرويش ؛ معتذراً إليه بأنه لم يكن يعرف قدره فبدرت منه البادرة ، سائلا العفو عن التقصير لأنه لم يقم بخدمته بنفسه ، آسفاً لأن يراه رث الملابس رقيق الحال ، مع هذه المرتبة الرفيعة من العلم والخلق .

وأقبل المعرِّف في لطف وخشوع وأدب جم فوضع العمامة فوق رأس الدرويش ، ممسكاً الثوب بيده ليدثره به . ولكن الدرويش دفع المعرِّف عن نفسه ، ونزع العمامة وأعطاه إياها :

إذهب إلى حيث جئت ولا تضع فوق رأسي قيد الغرور ، إني أخاف على هذا الرأس أن ينوء بعبء عمامة قاضيك وقد لُفَّت بخمسة أذرع من القماش . إذهب فإني أخاف على نفسي أن تملأ غروراً إذا ما لبست العمامة الكبيرة ولقبوني المولى أو الصدر الكبير ، فأرى الناس صغاراً وقد يكونون أكبر مني فضلا ومكانة عند ربي . ماذا عليَّ من هذه العمامة ؟ وأى فرق يطرأ على الماء الزلال في كأس من الذهب وضع أو في كأس من الفخار ؟ إن العقل والحكمة أحب إلى رأسي من هذه العمامة الجميلة . إن الرجل لا يعتز بكبر رأسه وضخامة عمامته ، فإن للقرع رأساً كبيراً لا عقل فيه .

ونظر الدرويش إلى القاضي الذى نهره فقال :

لا ترفعن رأسك عالياً لأنك لبست عمامة كبيرة ، وتحليت بلحية طويلة ؛ العمامة من قطن ؛ واللحية كالحشيش ينبت في الأرض . وليكن قدرك بقدر مالك من فضل ، ولا تكونن كزحل اتخذ بين الكواكب مكاناً عالياً ،

ولكنه نحس يؤذى الناس . ألم تعرف قصب الحصير ، تراه طويلا فإذا ذقته لم تجد سكراً فيه .

يا صاحبي : إنى لا أراك من ذوى الفضل لأن مائة عبد يسيرون من ورائك ، إنما الفضل بالعلم والخلق الكريم . (بستان)

٣٧

الخوف والحب

سألوا الملك هرمز لماذا حبست وزراء أبيك ، أرأيت منهم خطأ ؟ قال :

ما رأيت منهم خطأ ، ولكنى وجدت هيبتى قد تمكنت من قلوبهم ، فهم يخافوننى ولا يعتمدون على عهدى ، فخشيتهم وأمرت بقيدهم ، عملا بقول الحكماء :

خف مما يخافك ، ولو أنك قادر على قتل مائة مثله ،

ألم تر أن القطة فى عجزها تقلع عين النمر بمخلبها ،

ولهذا تعض الحية رجل الراعى ، فإنها تخشى أن يحطمها بهذه الرجل .

(كلستان)

٣٨

المـال

ضاقت الدنيا فى وجه درويش ، كان يبحث عن قوته فلا يجده إلا بشق النفس ، ولـكنه اليوم فى مسغبة لا يجد منها مخرجاً ، فلجأ إلى رجل من أثرياء بلده ، وشكا إليه حاله ، والتمس منه العون ، ولـكن الثرى الخبيث لم يرحمه ولم يعطه ديناراً أو دانقاً مما أفاء الله عليه ، وتركه يتلوى جوعاً وألماً ، ولم يكتف الثرى بحرمان الدرويش من بعض ماله ، بل إنه صرخ فى وجهه ونهره وطرده .

وتعجب الدرويش من هـذا الثرى الذى امتلا بيته بالخيرات يضن على الفقير بكسرة من خبز قفار يسد بها رمقه ، كأنه لا يخشى صروف الزمان ، أو كأنه ضمن بقاء المال . ولمـا وجد الثرى أن الدرويش يتمتم ويتباطأ فى الانصراف عنه ، نادى خادمه وأمره بطرده شر طردة ، فطرده فانصرف .

* * *

وسارت عجلة الزمان ، ترفع وتخفض ، وتدنى وتقصى ، فإذا بالثرى الخبيث يفقد ثروته ، ويصبح فقيراً لا يملك شروى نقير ، ويمسى ممزق الثياب ، خاوى الوفاض ، يستجدى عطف النـاس ليأكل ، وقد تهدم

بيته فافترش الثرى والتحف السماء ، وأخذ يلتفت من حوله لعله يجد من يعطف عليه ويرق له فيسد رمقه ، ويكسو عريه ، ويأويه من وهج الشمس بالنهار ، ومن قارس البرد بالليل .

أما عبده الذى استعان به على زجر الدرويش وطرده فإنه قد اضطر إلى بيعه فيما باع من أموال ، وقد اشتراه رجل ثرى كريم مبسوط اليد ، يسعده أن يجد فقيراً ذا مسغبة فيطعمه ، كما يسعد الفقير بمال كان يتمناه .

* * *

وذات يوم وقف بباب قصر الثرى فقير يلتمس لقمة ، وقد بدا على مظهره ذلة الفقر وعضة الجوع ، حتى إنه لم يكن قادراً على الوقوف مستنداً إلى رجليه ، ورفع الفقير صوته مستجدياً فسمعه الثرى فأرسل غلامه بطعام ليطعم هذا السائل المحروم . وخرج الغلام يحمل أطباق الطعام ، فلم يكد يقع نظره عليه حتى صاح متعجباً من حكمة الله ، وعاد إلى سيده وقد أغرورقت عيناه ، فسأله سيده عن سبب بكائه فقال :

إن هذا الرجل الذى وقف على بابنا يمد يده بالاستجداء ويطلب الإحسان ، هو سيدى الذى كان يملك من الذهب والفضة ما لا عدد له ، والذى كان ينفق عن سعة ، ولكنه كان ينهر المسكين ولا يطعمه ، فها هو قد أذله الله وأذاقه مرارة الفقر والمسكنة ، فأتى ينشد عندك ما يتبلغ به ، فيا لظلم الأيام وجور الزمان . فضحك السيد وقال لغلامه :

ليس هذا ظلماً يا بنى فإن الزمان لا يظلم الناس ، أليس هذا هو التاجر المتكبر الذى صعَّر خده ، ورفع بالغرور رأسه ، كأنه يريد أن يبلغ السماء . وأنا يا بنى الدرويش الذى طرده من بابه وقد استعان بك يومئذ على طردى

وإذلالى ؛ ها هو يجلس ذليلا حيث كنت ، فقد رضى الله عنى فأزال عنى الفقر وأنعم على بنعمته التى ترى ، والله يا بنى إذا أغلق باباً فتح برحمته باباً سواه ، وهكذا يسعد فقراء بعد حرمان ، ويشقى بالبؤس بعض السعداء ، والمال يابنى وديعة ، تنتقل من يد إلى يد ، فيها للسائل والمحروم نصيب .

(بستان)

٣٩

المتنبى

ظهر فى عهد أحد السلاطين رجل ادعى النبوة فأمر السلطان بالقبض عليه وقتله .

وبعد زمان ظهر رجل آخر فادعى الألوهية ؛ فلما علم السلطان بأمره ، أمر بإحضاره إليه ، فسأله :

كيف تجرؤ على ادعاء الألوهية ، ألم تسمع أن رجلا إدعى النبوة فقتلناه ؟

فقال الرجل :

حسنا فعلت أيها السلطان ، فإنى لم أبعثه نبياً !

(عبيد الزاكانى)

٤٠

فى ساحة الله

سمعت أن رجلا ، أيام عيسى عليه السلام ، أمضى عمره فى الضلال والجهل ، فأتلف حياته سدى . وقد كان من سوء السيرة ، وخبث الطوية ، وقسوة القلب ، بحيث يخجل منه إبليس . لم يكن يجد قلباً يأوى إليه ، وقد امتلأت رأسه بالمكر والجنون ، وتُخمت بطنه بالأكل الحرام ، وتلوث ذيله بالفسق ، حتى أن أسرته تدنست بخطاياه . لم يكن لهذا الرجل الفاسق قدم تسوقه إلى سواء السبيل ، وإذا حضر مجلس نصح وتقوى بدا كأن فى آذانه وقرا ، وقد خشيه الناس وأبغضوه كما يبضغون السَنَة السيئة . وقد أسلم نفسه للهوى والشهوة والإباحة ، فلم يقف فى طريقه شىء ، ولا أقام وزنا لوازع ؛ إنه كان يعبد نفسه ويقدس شهوته ، فكان يقضى الليل سكرانا ، والنهار مخموراً .

***

وأقبل عيسى عليه السلام من الوادى فدخل مقصورة العبادة ، ورآه الرجل المستهتر وقد أحاطت به هالة النبوة فبهره ما رأى ، وأحس شيئاً يدفعه

إلى عيسى ، ليطلب العفو من ربه ويندم ويتوب عما فات . إن التقوى قد دخلت إلى قلب الرجل ، وهو شاعر بما قدمت يداه من آثام ، فهو نادم ، كسيف البال ، باك ، يريد أن يستغفر ربه ، عساه أن يغفر له .

ودخل الرجل المقصورة فارتمى تحت قدمى عيسى وأجهش بالبكاء ، وكلما حاول أن يتكلم خنقته العبرات ، حتى إذا هدأ تكلم مستغفراً ، طالباً الرحمة من رب العالمين .

وكان فى الركن الآخر من المقصورة رجل عابد صالح ، لا يترك صلاته ولا يتوانى عن الصوم ، يقوم الليل ، إنه يعبد ربه آناء الليل وأطراف النهار . وكان يعرف هذا الفاسق ، فلما رآه قد اجترأ على دخول المقصورة ، وأخذ يتوسل ويذرف الدمع ، تأفف من السماح لمثله بدخول بيوت الله ، ومشاركة الصالحين فى مأواهم . فأخذ الرجل الصالح يشتم الفاسق ويدعو ربه أن لا يجعله معه يوم الحساب ، فإنه لا يقوى على رؤياه أو صحبته .

* * *

وأبصر عيسى فإذا الوحى وقد بعثه « جليل الصفات » مقبلا عليه يقول :

يا عيسى لا يغضبنك الرجل قد أمضى عمره فى الفسق وأتى اليوم إلى عتباتك يطلب العفو والغفران ، إنه قد بكى ندماً وحسرة على ما أذنب ، وإنه سيمشى بعد اليوم على صراط مستقيم .

يا عيسى لا تسمعن العابد الصالح ، إنه يتقدم إلى ربه فى كبرياء ، معتمداً على أنه أمضى عمره مطيعاً لربه .

يا عيسى إن العجز والمسكنة والذلة على عتبة الله خير من الطاعة والعبادة

والاعتداد بالنفس . إن الله لا يحب كل مختال فخور . وإن دعاء الرجلين ، الفاسق والصالح ، مقبول عند ربك على السواء ، ولو أن هذا عالم وذاك جاهل .
يا عيسى إن الفاسق قد أتانى متضرعاً باكياً لأنه أضاع أيامه سدى ، وأنا أقيل عثرة من أتانى ذليلا كسير الفؤاد ، ولقد غفرت له سيئاته ، وسأجعل له الفردوس نُزُلا .

يا عيسى قل للعابد لا يجزع من صحبة الفاسق يوم القيامة ، يومئذ لن يرى فيه عاراً ، فإنى مدخل الفاسق الجنة ، وملق بالعابد فى النار . لأن الأول قد امتلأ قلبه دماً ، من حزنه وأسفه على ما قدم من ذنوب ، ولأن الثانى قد عقد على تقواه الأمل فى الجنة ، فجاء متكبراً ، وبُغضا للمتكبرين . ليس من الخير أن يعبد الرجل ربه فيحسب نفسه من الصالحين ، ويعلو على من لا يعبد الله ، والرجل الحر لا يفخر برجولته ، فليس كل فارس ماهر قادراً على اللعب بالكرة .

يا عيسى قل للعابد إنه مغرور وقد ظن مخه من الفستق ، والحق إنه من البصل ، قشر على قشر . قل له ليستغفر ربه ، فإن ما قدم من طاعة وما أدى من عبادة ، ليس بنافعه اليوم ، إنه لن يجنى ثمرة من طول عبادته ، لأنه أطاع ربه وآذى الناس .

* * *

إن مذنباً يخاف ربه خير من عابد يباهى بعبادته .

(بستان)

٤١

ضيف ابراهيم

اشتهر إبراهيم الخليل بالكرم وحسن الضيافة ، وقد حدث أن مضى أسبوع لم يحضر لمأدبته أثناءه أحد أبناء السبيل ، وكان إبراهيم لا يستطيع أن يتناول طعام الصباح حتى يحضر أحد الفقراء فيشاركه طعامه . فخرج من بيته وأخذ ينظر فى كل جهة من أطراف الوادى حتى رأى رجلا فى الصحراء ، طويلا كالصفصاف ، وقد اشتعل رأسه شيباً كأن الكبر قد كساه بثلجه .

ونادى إبراهيم عابر السبيل ، فلما أقبل عليه ، حياه ورحب به ، ونادى بإحضار الطعام ، وسأل ضيفه الإذن بتناول الطعام فى صحبته ، فقبل الرجل شاكراً ؛ وكان يعرف كرم إبراهيم ويسمع أخبار مضيفته . وأقبل الخدم فأجلسوا الرجل فى مكانه من المائدة بالتجلة والتكريم . فلما اكتمل الجمع وأخذ كل مكانه ، بدءوا بذكر اسم الله الرحمن الرحيم . ولكن الضيف لم يذكر الاسم الأجل .

وتعجب إبراهيم من الشيخ الكبير لا يذكر اسم ربه قبل أن يضع الخبز فى فمه ، فسأله لماذا لم يفعل كما يفعل الشيوخ فى إخلاص وإيمان . فقال الرجل إنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً لم أسمع عنه من سدنة بيت النار .

فأدرك إبراهيم أن ضيفه مجوسى من عبدة النار ، فاستولى عليه الغضب وأمسك بالرجل فرفعه من مكانه وطرده ، حرصاً منه على أن لا يشارك الأتقياء أكلهم .

* * *

فبعث الله جبريلا إلى إبراهيم يقول له :

يا إبراهيم لقد تحملتُ هـذا الشيخ ومنحتهُ الحياة والقوت مائة سنة ، ولم تستطع أنت تحمله لحظة واحدة ؟ يا إبراهيم إذا كان الشيخ يسجد للنار فما بالك أنت تكف اليد التى بسطها لك بالجود ؟

(بستان)

٤٢

دولة الظلم

امر ملك بقتل رجل برئ ، فلما حان وقت التنفيذ قال الرجل للملك :

يا مولاى ، لا تسع لإيذاء نفسك بسَوْرة من الغضب على عبـدك .

فسأله الملك ماذا يقصد . فقال :

سأتأثر بقتلك إياى لحظة من ساعة ، وسيبقى إثمك حتى قيام الساعة .

فأعجب الملك بنصحه وعفا عنه .

(كلستان)

٤٣

الرازى والأمير المريض

مرض الأمير منصور بن نوح مرضاً أزمن حتى أقعده ، وعجز الأطباء عن مداواته ، فأرسل رسولا يدعو محمد بن زكريا الرازى ليعالجه ، وجاء الرازى حتى نهر جيحون ، ولكنه عند ما بلغ شاطئه ورأى ماءه ، قال أنا لا أركب السفينة ، فقد قال الله تعالى . « لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، فليس من الحكمة أن يركب الإنسان الأخطار مختاراً . ثم صنف كتابه « المنصورى » فى الفترة بين رجوع رسول الأمير إلى بخارى وعودته منها ، ثم سلمه إليه وقال : أنا هذا الكتاب ، وسترى فيه مقصودك ، ولا حاجة لك بى .

فلما وصل الكتاب للأمير غضب ثم أرسل له ألف دينار وحصاناً خاصاً بعدته وقال لرسله : ترفقوا به فإن لم يجد الرفق معه قيدوا يديه ورجليه وأجلسوه فى السفينة واعبروا ، فعمل الرسل برأى الأمير ، ولكن الرفق لم يؤثر فى الرازى ، فأوثقوه وأركبوه السفينة وعبروا ؛ ثم فكوا قيده ، وقدموا له الجنيبة بعدتها فركبها ، هادئ الطبع ، واتجه نحو بخارى . فقالوا له : إنا خفنا أن تخاصمنا بعد أن نعبر النهر ونفك قيدك ، ولكنا لم نر منك ضجراً أو ضيق صدر . فقال : إنى أعرف أن عشرين ألف رجل يعبرون جيحون كل عام ولا يغرقون ، وأنا أيضاً لا أغرق إذا عبرت ، ولكن من

الجائز أن أغرق ، فإذا غرقت فسيقال حتى يوم القيامة كان محمد بن زكريا أبله إذ ركب السفينة مختاراً فغرق ، فأكون من الملومين لا من المعذورين .

ولما بلغ الرازى بخارى دخل عليه الأمير وتقابلا ، ثم بدأ الطبيب العلاج وبذل فيه جهده ولـكن بلا جدوى ؛ فدخل يوماً عند الأمير وقال : « غداً سأجرب علاجا آخر ، وسيخرج من أجل هذا العلاج الحصان كذا والبغل كذا » ؛ وهاتان الدابتان معروفتان بالسرعة ، فإنهما يقطعان أربعين فرسخاً فى الليلة .

وفى اليوم التالى حُمل الأمير إلى حمام نهر موليان ، ووضع الحصان والبغل خارج الحمام مُعَدَّين ومشدودين مع غلام الرازى ، ولم يسمح لأحد من خدم الأمير وحشمه بدخول الحمام . ثم أجلس الرازى الأمير وسط الحمام وصب عليه ماء فاتراً ، ثم أعد له شرابا وذاقه ثم سقاه إياه ، وأبقاه زمناً ليتيح للأخلاط أن تنضج فى مفاصله ، ثم ذهب فلبس ثوبه وعاد فوقف أمام الأمير موجها له بعض سقط القول : « يا كذا وكذا لقد أمرتَ بقيدى وإلقائى فى السفينة وتهديد حياتى ، فإذا لم أجزك على هذا بإزهاق روحك فإنى لا أكون ابن زكريا »

فغضب الأمير غاية الغضب ، ونهض على ركبتيه وهو فى مكانه ، فجرد عليه الرازى سكيناً وأوسعه إهانة ، فنهض الأمير واقفاً ، غضباً أو خوفاً ، فلما رأى الرازى أن الأمير قد وقف تراجع وخرج من الحمام . ثم ركب الحصان وركب غلامه البغل واتجها نحو جيحون فعبراه عند صلاة العصر ، وأحثا السير إلى أن بلغا مرو . ومنها كتب الرازى خطابا للأمير قال فيه :

« أطال الله حياة الأمير صحيح الجسم نافذ الرأى ، قد بدأت العلاج وبذلت كل ما فى الطاقة ، فرأيت حرارة غريزية مع ضعف تام وأن العلاج

الطبيعي قد يطول ، فعدلت عنه ولجأت للعلاج النفساني ، فحملت مولاي إلى الحمام وناولته الشربة وتركته حتى تنضج الأخلاط نضجاً تاماً ، ثم أثرت غضبه حتى يساعد الغضب في إذكاء الحرارة الغريزية فتقوى وتحلل هذه الأخلاط المتزايدة ، وبعد هذا لم يكن من الصواب أن أبقى لأقابل الأمير »

وعند ما نهض الأمير على رجليه وخرج الطبيب فامتطى جواده ، غُشِي عليه ، فلما أفاق قام وخرج ونادى الخدم وسأل أين ذهب الطبيب ؟ فقالوا خرج من الحمام فركب الحصان وسار مع خادمه ، فعرف الأمير قصد الرازي من سلوكه .

وخرج الأمير ماشـياً من الحمام ، وذاع الخبر في المدينة ، ثم جلس في الحضرة ، وأقام الناس الأفراح . . وفي اليوم السابع جاء غلام الرازي راكباً البغل ومعه الحصان ، وسلم الأمير الخطاب الذي كتبه سيده ، فقرأه الأمير ، ثم أمر بالخلع والصلات للرازي . (جهار مقاله)

٤٤

آخرة

رأى أحد الصالحين في المنام ملـكاً في الجنة وزاهداً في النـار . فسأل كيف كان ذلك ؟ فقيل له :

دخل الملك الجنة لحبه الدراويش ، ودخل الزاهد النار لتقربه من الملوك .

(كلستان)

٤٥

دواء الملك المريض

مرض ملك مرضاً مستعصياً ، واجتمع أطباء اليونان لعلاجه فلم يروا دواء له غير كبد آدمي ذي صفات خاصة ، فلما عرف الملك هذا أمر بالبحث عن الإنسان المطلوب ، فاجتهد رجال الحكومة حتى عثروا على ابن دهقان توفرت فيه شروط الأطباء .

وبعث الملك لوالدي الفتى وحدثهما عن الأمر وأجزل لهما العطاء ، فقبلا قتل ولدهما ليأكل الملك كبده ليشفى .

ونادى الملك القاضي وسأله إذا كان حلالا قتل نفس بغير نفس ولكن ليتداوى الملك بكبدها ، فأفتى القاضي بأن قتل أحد الرعية ليأكل الملك كبده ليشفى ، حلال .

وجيء بالغلام ليذبحوه ذبح الشاة ، وكان الملك مطلاً عليه ، فرأى الغلام ينظر إلى جلاده ثم يرفع عينيه إلى السماء ويبتسم .

فأسرع الملك نحو الفتى وسأله : ماذا أضحكك وقد أشرفت على الهلاك ؟

فقال الفتى :

إن على الوالدين أن يرحما فلذة كبدهما ، وإن على القاضي أن يعدل في قضائه ، وإن على الملك أن يعفو ، وقد رأيت أبويّ غرهما حطام الدنيا فسلماك روحي ،

وسألتَ القاضي نخشيك ، ولم يخش ربه ، فأحل لك دمي ، وأنت يا سيدي رأيت شفاءك في إزهاق روحي فأمرت بقتلي ، فلم أر ملجأ لي غير ربي ، فرفعت رأسي إليه راضياً بقضائه .

فتأثر الملك من قول الفتى وبكى ، وقال : لئن أموت مريضاً خير من قتل نفس زكية ، ثم أخذ الفتى فقبله وأجزل له العطاء .

قالوا : ولم يمض على هذا أسبوع حتى برئ الملك من علته .

(كلستان)

٤٦

حاتم الطائي والحطاب

سئل حاتم الطائي : أرأيت أو سمعت أن رجلا أعلى همة منك ؟ فقال نعم ، نحرت يوماً أربعين جملا ، ثم خرجت مع جماعة من أمراء العرب إلى الصحراء ، فرأيت حطاباً يجمع الحطب ثم يحمله فوق ظهره ، فسألته : لماذا لم تذهب إلى بيت حاتم فقد اجتمع القوم حول سماطه ؟ فقال الحطاب :

إن من يكسب خبزه من عمله لا يتحمل منة حاتم الطائي .

فأدركت أن هذا الحطاب أعلى همة مني .

(كلستان)

٤٧

المناصب

ذهب وزيرٌ إلى « ذو النون » قُدس سره وطلب منه العونَ قائلا : إنى أقوم بخدمة الملك ليل نهار ، آملٌ فى خيره خائف من بطشه .

فبكى ذو النون وقال :

لو خشيتُ الله خشيتك الملكَ لـكنتُ من الصدّيقين .

(كلستان)

٤٨

الدرويش الملك

اقترب أجل أحـد الملوك ، ولم يكن لهُ وارث ، فأوصى بأن أول رجل يدخل المدينة صباح موته يولّى ويرقى العرش وتفوض إليه أمور المملكة .

فاتفق أن أول داخل فى المدينة صبيحة موت الملك درويش كان يقتات بما يجود عليه النـاس به من لقم ، وكان يلبس رداء خاطه بما جمع من خرق ، فنفذ أركان الدولة وصية الملك ، فألبسوه التـاج ، وسلموه مقاليد المُلك .

وبقى الدرويش يسوس الدولة زمناً ، حتى خرج عليه بعض الأمراء ، وثار عليه الملوك من كل الأطراف ، واتفقت كلمة الجند والرعية على خلعه .

وبينما الملك الدرويش فى كدر مما أصاب فكره من التشتيت بسبب الملك جاءه صديق له قديم ، من أيام الفقر والتسول ، فرأى صاحبه قد علا العرش وعلى رأسه تاج ، فقال له :

الحمد لله رفع درجتك ، وجعل لك حظاً عظيما ، فأخرج من الشوك زهرتك ، ومن الحصى رجليك ، وربعك على العرش ، فإن مع العسر يسراً .

فقال الدرويش الملك :

يا صاحبى ، إن دعاك ظاهرى لتهنئتى فإنى بالعزاء جدير ، فإنى حين عرفتنى ، لم أكن أفكر فى غير كسرة من خبز أسد بها رمقى ، أما اليوم فإنى أفكر فى هذه الدنيا التى ثارت علىّ ، تريد أن تعصف بى .

(كلستان)

٤٩

الملك والزاهد

رأى ملك زاهداً فسأله : ألا تذكرنى أبداً ؟

قال الزاهد :

أجل ، أذكرك كلما نسيتُ ربى .

(كاستان)

٥٠

قصة العلم الايرانى

درفش كاويانى

حدثتك يا مولاى عن إيران أيام جمشيد وكيف ازدهرت الحياة فيها بفضل ما لقى الناس من عدل هذا الملك وحبه لبلده وعمله على النهوض بها وإسعاد أهلها ، واليوم أحدثك عما كان من أمره بعد أن بلغ الغاية فى السمو والسلطان ، فإنه لما رأى الناس مقبلة عليه ، تحبه وتؤثره وتلتف من حوله ، طغى وبغى وتكبر ، ورأى نفسه بشراً فوق البشر ، فأدعى الألوهية وأمر الناس بأن يصنعوا التماثيل من رسمه وأن يعبدوها . وكان فى إيران وقتذاك ثلاثة أديان ، دين الملوك ودين الشعب ودين قبيلة المغان (المجوس) ، فلم يلق رأى الملك جمشيد قبولا من إحدى هذه الطوائف ، وثاروا جميعاً عليه ، وعملوا على خلعه .

وكان بجوارهم ، فى بلاد حمير ، ملك عربى عظيم ، كانت أخباره تسير فى إيران ، فيعجب أهلها بعدله ، واستقامته ، وحسن سيره فى رعيته ، وكان التجار يفدون من حمير على إيران فيقصّون على أهلها من عظمة مرداس ، وحب الأعراب له ، ما كان يقربه من قلوب الإيرانيين ويمكن له فى قلوبهم ،

وكانوا ينتقلون من إيران إلى بلاد حمير فيتحدثون فيها عن جور جمشيد ، وبغيه ، وغروره ، ومحاولته قهر الفرس على عبادة تماثيله ، وكيف أن الشعب ثائر عليه ، خالع له ، فيجيش صدر مرداس بالرغبة فى غزو هذه البلاد لينشر فيها الأمن ، والعدل ، وليتيح للناس فيها أن يكونوا أحراراً فى اعتناق الدين الذى يحبون .

واستعان الإيرانيون بمرداس ملك حمير ، وسعى عظماؤهم إليه يبغون منه العون ، ويفوضون إليه الأمر ، ولم يكن مرداس غريباً عن إيران ، فهو زوج أخت جمشيد ، وولده الذى يليه فى الحكم يعتبر من أبناء بنات الإيرانيين ؛ ولذا فإن جيوشه قوبلت بالترحيب فى إيران ؛ وذهبت جهود جمشيد فى الدفاع عن نفسه عبثا ، وتركه جنده فريسة لجيش الغزاة العرب ؛ فاضطر أن يهرب إلى الهند ، ومنها إلى الصين ، وتعقبه رجال الغزاة فقبضوا عليه وسيق إلى إيران فأمر الملك ، بقطعه نصفين بعظم سمكة .

* * *

وإذاً فقد أصبح ملك حِمْيَر ملكاً على إيران ، وخرجت الجيوش العربية من الصحراء إلى بلاد ذات مدنية وعمران ، وانتقلت حياة العرب من البداوة الساذجة السهلة إلى الحضارة المترفة المعقدة ، وأصبح ولى عهد الدولة ، بِيُورَسب ، ينعم فى العاصمتين ، العربية والفارسية ، نعيما لم يتح لأبناء كثير من الملوك .

واتسع مجال اللعب واللهو أمام بيورسب ، فرأى فيه الشيطان ضالته ، لإفساد أمور الناس والبطش بهم ، فخيَّل إليه أن يستعجل هذا الملك العظيم الذى لن يتاح إليه إلا إذا مات أبوه ، وصوّر له أباه أنانياً ، لا يحب له الخير ،

وماذا لو نزل له هذا الوالد عن جزء من هذه الدولة الواسعة ، التى لا يحكم ملك فى العالم دولة فى عظمتها واتساعها ، وماذا لو أتاح له بعض مزايا الملك كما يفعل سائر الملوك مع أبنائهم ، ثم إن الأمور تسير على غير ما ينبغى أن تكون عليه ، فهذا ملك عربى لا تجرى فى عروقه دماء ملوك الفرس ، فهو لا يعرف طباعهم ، ولا يحس إحساسهم ، ولذا فإنه لا يُحسن حكمهم ورعايتهم ؛ وأما بيورسب فهو نصف فارسى ، هو ابن ملك حمير من أخت ملك إيران ، فهو إذاً أولى من أبيه بحكم إيران .

وأخذ الشيطان يوسوس لصاحبه حتى صوّر إليه أنه قادر على التخلص من أبيه ، ليلىَ هذا العرش العظيم ، وما أيسر بلوغ هذه الأمنية ، إنها لا تزيد على ضربةِ سيف من فتى فى ريعان الشباب إلى شيخ بلغ من عمره عِتِيا .

وفى ساعة من ساعات الشر والشهوة ، أمسك بيورسب سيفه ، ودخل على أبيه الشيخ ، ولم تكن إلا ضربة واحدة ، أسقطت ملكاً وأقامت بدله ملكاً آخر .

وصار بيورسب ملك حِمْيَر وإيران .

* * *

ومضت السنون الأولى من حكم بيورسب فى هدوء ودعة ، فإن أحداً من الناس لم يكن يعرف أنه قتل أباه ليخلفه ، ولكنهم يعرفون أن العرش قد آل إليه ، وأنه ابن إحدى بنات ملوكهم ، فهو إيرانى مثلهم ، وكانوا به فرحين .

ولكن الشيطان لم يترك صديقه لحظة واحدة ، وما كان يقوده لخير إلا ليهيئه لشر أعظم ، فهو يُملى عليه من الحكمة ما يرفعه فى أعين الناس ،

وهو يهيئ له من الخير ما يزيده تقريباً إليه وإعجاباً به ؛ فتمثل له فى صورة طبّاخ ماهر ، وكان بيورسب نهماً ، يحب الأكل ويعنى بأصناف الطعام ، فكان الشيطان يقدم له كل يوم ما لذّ منه وطاب ، مما أطلق لسان بيورسب بالثناء عليه . . وكان إذا سأل هذا الطباخ الماهر عن أمر أجابه بحكمة تلهج لسان الملك بالشكر والإعجاب ، وكلما حاول بيورسب أن يكافئ هذا الشاب بالمال أبى وامتنع وقال إن رضاء الملك ثروته وذخيرته فى الحياة . .

قال بيورسب :

ولكنى أريد أن أكافئك على ما أرى من حسن صناعتك ورائع تفكيرك وجميل نصحك ، فاطلب ما شئت ما دمت لا تريد المال .

قال الشيطان :

إن وجودى بجانب مولاى هو خير ما أتمنى ، وإذ أتاح لى الملك أن أطلب ما أشاء فإنى ألتمس منه أن يتيح لعبده أن يُقَبل ما بين منكبيه . .

وقبل الملك وأقدم الشيطان فقبله بين منكبيه واختفى فلم يره أحد .

ونظر بيورسب حوله ليرى هذا الطباخ الماهر فلم يقف له على أثر ، وبينما هو فى حيرة من اختفائه إذا به يحس حركة بين منكبيه ، وإذا بحيتين خبيثتين قد نبتتا حيث كانت قبلة الطباخ . . وجئ بالأطباء من كل مكان فأشاروا بقطع الحيتين فقطعتا ثم نبتتا من جديد أشد هولاً وأكثر فتكا مما كانتا ، وكلما قطعتا ظهرتا من جديد ، أكبر حجما وأقبح شرا . . وحار الأطباء ثم تشاوروا ورأوا أن يؤتى بحكيم من بلاد اليونان اختص بعلاج ما استعصى من الأمراض . وجاء الحكيم ، ورأى الملك والثعبانين فقال : هذا شر عظيم ، وإذا شاء الملك أن يعيش فعليه أن يكفل لهذين الثعبانين الغذاء ، وهما لا يأكلان غير أدمغة البشر . .

***

وأقض الفزع مضجع الملك بيورسب ، وأدرك عاقبته إذا هو سار فى قتل الناس ليغذى الثعبانين بأدمغتهم ، ونادى المنجمين يسألهم عن المصير ، فحذروه جميعاً من طفل صغير من نسل الكيانيين ، يشب فينتزع منه الملك ؛ فأخذ بيورسب فى تقتيل أفراد الكيانيين ، ليفرغ منهم ومن نسلهم ؛ وكان من هؤلاء شاب ذكى الفؤاد ، راجح الفكر ، اجتمعت فيه الصفات التى يحبها الناس فى ملوكهم ، وكان العظماء يجتمعون عنده ، ويتشاورون فيما ينبغى أن يعمل ليخلصوا بلادهم من حكم العرب ، وليولوا عليهم ملكاً من أنفسهم ، بدل هذا الملك الذى أطلقوا عليه لقب التنين (أزدهاك — الضحاك) ، والذى يقتل أبناءهم فى غير رحمة أو شفقة ليطعم ثعبانيه بأدمغتهم .

ووقع هذا الشاب فى يد رجال بيورسب فأخذوه وقتلوه وقدموا رأسه غذاء للثعبانين ؛ وكان له طفل صغير اسمه أفريدون ، فخشيت أمه أن يصيبه ما أصاب أباه ، فأودعته سراً عند أحد الموابذة ليرعاه ، فلم يكد الموبذ يرى الطفل حتى أخبر أمه بأن سيكون له شأن كبير ، وسيئول إليه عرش إيران . وجدّ بيورسب فى طلب هذا الطفل وهو يبحث عن نسل الكيانيين ، ولكن امه استطاعت أن تنقله إلى بلاد الهند ، فظل بها إلى أن أصبح شاباً قوياً ، وعبثاً ذهبت جهود بيورسب للعثور عليه .

ولما اكتملت فتوة هذا الشاب أخذ يسأل صاحبه الذى نشأ عنده ، ويلح عليه فى السؤال ، إلى أن عرف أنه من نسل الكيانيين ، وأن بيورسب قتل أباه ، وأن أمه هربته من إيران إلى الهند حتى لا تمتد إليه يد الملك الظالم فيطعم دماغه الثعبانين اللذين أفنيا شباب إيران وزهرة أهلها ... ولم يستطع

الفتى صبراً بعد الذى سمع ، وأعد عدته ليسافر إلى إيران ، فيدفع الشر عنها ، ويقتل هـذا الملك الظالم ، ويعيد الاستقلال إلى بلاده ، ويجلس على عرشها ليصلح أمرها ، ويعيد إليها ما كانت عليه من عظمة وجلال .

فلما بلغ إيران قابلته أمه فحدثها بما علم واستزادها فزادته علماً بأسرته ، وبأحوال بلاده ، وخبأته فى مكان أمين انتظاراً لسنوح الفرصة ، فتوارى أفريدون عن الأنظار إلى حين .

***

وكان فى المدائن حـداد اسمه « كاوه » ، كان فقيراً يعول أسرة كبيرة ، وكان له ولدان يساعدانه فى حانوته الصغير ، فجاء أعوان الملك وأخذوا الابن الأكبر فقتلوه ، فجلس الرجل حزيناً صابراً على ما أصابه ، داعياً ربه ألا يأتى دور ولده الثانى حتى يكون الضحاك قد هلك فيخلص الولد من الموت . وفى صباح اليوم التالى جاء الجند فساقوا ابنه الآخر ليقتلوه ، فنفد صبر الرجل ، وسـار جزوعاً إلى بلاط بيورسب ، فاقتحمه غير مستأذن ، فلما دخل وجد الملك وعلى كتفيه الثعبانان ومن حوله جماعة من العلماء يحررون محضراً يشهدون فيه بأن الملك يرعى الرعيـة بالرفق والحسنى ، وأنه يقيم العدل بين النـاس ، ولا يظلم منهم أحداً ، فرفع « كاوه » الحداد صوته ، شاكياً حاله ، فقد أخذوا ابنه الأكبر وقتلوه بالأمس واليوم عادوا فأخذوا الولد الثانى ليقتلوه ؛ فرق قلب الملك له ، وأمر بإطلاق سراح الولد . ونظر العلماء إلى كاوه — وشر النـاس عالم بلا خُلق — وطلبوا إليه أن يشهد بعطف الملك على رعاياه ، واستماعه لشـكواهم ، وتحقيق العدل بينهم ، ورفع الظلم عنهم ! ولم يكد كاوه يسمع هـذا الـكلام حتى استشاط غضباً ، ولم يستطع أن يكظم

غيظه ، فأخـذ المحضر من يد كبير العلماء ومزقه ورمى به فى وجهه وهتف بسقوط بيورسب .

وخرج من القصر مسرعاً وهو ينادى بسقوط الظلم ، فالتف الناس من حوله ، وساروا وراءه حتى بلغ دكانه ، وهناك وجد الجمع قد كثر ، فأخـذ الخرقة التى يلفها على وسطه ليتقى بها شواظ النـار ، ورفعها وأخذ ينـادى باستقلال إيران وبسقوط بيورسب وبالدعوة إلى أفريدون ، وسارت الجماهير من ورائه تؤيده وتهتف وراءه .

***

وبلغ الخبر أفريدون ، فخرج من مكمنه ، وسار إلى حيث الجماهير متجمعة حول كاوه ، فنادوا به ملكاً عليهم ، وساروا معه إلى قصر بيورسب فقبضوا عليه ، وقيـدوه ، ورموه فوق جبل دماوند ، يشقى إلى أن يقضى عليه الثعبانان .

ومنذ هذا اليوم اتخذ ملوك إيران هذه الخرقة علماً لهم ، وسموها العلم الـكاويانى ، نسـبة إلى كاوه الحداد ، وزينوها باللآلىء والجواهر ، وكانت أنفس ما يعتز به ملوكها .

٥١

الأسير

سئمت صحبة أصدقائى فى دمشق ، فوليت وجهى شطر صحراء القدس ، اضرب فيها خبط عشواء ، فوقعت أسيراً فى يد الفرنج ، وأودعونى خندقاً مع اليهود ، وأخذت أعمل معهم فى الطين ؛ فمر بى صديق قديم من رؤساء حلب فعرفنى وسألنى عما حلّ بى .

فقلت : خرجت أبتغى وجه ربى فرمانى الزمان مع هؤلاء الناس ، وإنه لخير لى أن أعيش بين أصدقائى فى السجن من أن أعيش حراً مع هؤلاء القوم فى البستان .

فرق قلبه لى وافتدانى بعشرة دنانير وأخذنى معه إلى حلب .

وكان لهذا الصديق بنت فعقد لى عليها بصداق مائه دينار ، وكانت هذه البنت سيئة الخلق ، قاسية الطبع ، وطالما تحملت من عنفها وغلظتها ، فذات يوم تطاولت علىّ قائلة :

ألست أنت الذى اشتراك أبى بعشرة دنانير من أسر الفرنج ؟

فقلت بلى يا سيدتى إشترانى أبوك من الفرنج بعشرة دنانير وسلمنى إليك أسيراً بمائة دينار ؛ مثلى كمثل الشاة أنجاها الرجل من الذئب فى الصباح ، وأجرى على رقبتها السكين فى المساء . (كلستان) ٢

٥٢

الملك والغلام الرعديد

ركب ملك سفينة ، وكان فى هذه السفينة غلام لم ير البحر من قبل ، ولم يعرف محنة ركوب السفن ؛ فلم تكد السفينة تسير حتى بدأ الغلام يبكى ويصيح وارتعدت فرائصه ، وحاول رجال الحاشية أن يهدئوا من روعه فلم يفلحوا ، بل ازداد عويله . فغضب الملك من صراخه ، وخار الرجال فى إسكاته .

وكان فى السفينة حكيم فسأل الملكَ أن يسمح له بتهدئة الغلام ، فرجاه الملك أن يفعل ؛ فأمر الحكيم بإلقاء الغلام فى الماء ثم إمساكه من شعر رأسه ورفعه للسفينة ، عدة مرات ، فكان الغلام يمسك الدفة كلما أُلقىَ فى اليم ، ويحمد الله إذ أمسكوه من شعر رأسه فرفعوه فأنجوه من الغرق .

وآخر مرة رفعوا الفتى وتركوه فجرى إلى زاوية فى السفينة وجلس صامتاً هادئاً . فسُرَّ الملك من تدبير الحكيم وسأله الحكمة فى سكوته ؟ فقال :

إنه لم يكن قد ذاق محنة الغرق حتى يعرف قدر سلامة السفينة ، والصحة يا مولاى تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى .

(كلستان)

٥٣

الأمير البقرة والطبيب

مرض أحد أمراء البويهيين بالملاخوليا، نخيل إليه أنه بقرة، وكان يصيح على كل من يرى من أصحابه وحاشيته، قائلا: « اذبحونى فإن لكم من لحمى هريسة طيبة »؛ وبلغ به المرض إلى حد أنه امتنع عن الطعام، وعجز الأطباء عن معالجته.

وكان ابن سينا فى ذلك الوقت وزيراً، فالتمسوا منه أن يذهب لمعالجة الأمير المريض، وقصوا عليه قصته، فقال: بشروا الأمير بأن القصاب آت لذبحه. فلما سمع الأمير بهذا سر سروراً عظيما. ودخل ابن سينا القصر ومعه رجلان، وسأل أين البقرة التى جئت لذبحها، فلما سمعه الأمير، قلد خوار البقر، فأمر بحمله فى وسط ساحة القصر مع قيده وإلقائه على الأرض، ولم يكد المريض يسمع هذا حتى جرى إلى وسط الساحة ونام على جنبه الأيمن فأوثقوا رجليه بشدة؛ وجاء الطبيب فسن السكين سناً، ثم جلس ووضع يده على جنب المريض، كما يفعل القصابون، ثم قال: « يا لها من بقرة هزيلة، إنه لا يحل ذبحها، إعلفوها حتى تسمن فنأتى ونذبحها »؛ ثم أمر بفض وثاقه وانصرف من أمامه.

ونصح أقاربه بأن يكثروا من تغـذيته ، وأن يفهموه أن عليه أن يأكل كثيراً ليسمن حتى يحل ذبحه ، فأقبل الأمير البقرة على الطعام كالنهم ، ودسوا له معه ما وصف ابن سينا من الدواء ، فشفى . (چهار مقاله)

٥٤

الرزق الحلال

كان تاجر ظالم يشترى الحطب من الفقراء بالثمن البخس ويبيعه للناس بفاحش الأثمان ، فمر به رجل صالح وزجره قائلا :

أثعبان أنت تلدغ كل من ترى أم بومة أنت تؤذن بالخراب ، خف من قضاء ربك إن رأيتنا نحمل بغيك ولا تعلوّن على الناس حتى لا يعلو دعاؤهم إلى السماء .

فغضب التاجر الظالم من هذا القول ، وأخذته العزة بالإثم ، ولم يجب .

وذات ليلة طارت شرارة من مطبخه فسقطت فى مخزن الحطب فاشتعل وأحرق بيته وأمواله فخرج وجلس فوق كومة الرماد حزيناً .

ومر الرجل الصالح فسمعه يبكى ويتساءل من أين جاءت الشرارة التى أشعلت النار ولم تبق شيئاً فى الديار ، فأجابه الرجل الصالح : إنها جاءت من قلوب الفقراء المحترقة يا أخى . (گلستان)

٥٥

حيلة

أودع رجل صديقاً له مائة مَنّ من الحديد ثم سافر ، فلما عاد من السفر طلب أمانته ، وكان صاحبه قد بددها ، فاعتذر له بأنه وضع الحديد فى ركن بالمنزل فأحاطت به الفيران فأكلته ولم تبق منه شيئاً . فتعجب الرجل ونظر لصاحبه ولم ينبس ببنت شفة .

وفى اليوم التالى جاء إلى صديقه وقال : إنى عازم على السفر وسأودعك مالى مرة أخرى ، أمانة ، على شرط أن تحافظ عليه . فسر الصديق الخائن بهذه الفرصة ، وأخذ يتودد لصاحبه بعذب الكلام ، مؤكداً أنه سيحرس ماله بروحه ؛ ثم التمس منه أن يشرفه بتناول العشاء غداً فى بيته .

* * *

فى مساء اليوم التالى ذهب الرجل إلى بيت صاحبه ، فأكرم هذا وفادته وأجلسه فى صدر المكان ، ثم أجلس من حوله أبناءه ، إظهاراً للود ، وتوكيداً للصداقة . وبعد تناول العشاء استأذن الرجل وانصرف ، ولكنه أخذ معه ابن صاحبه الصغير ، خفية .

وظل الرجل يبحث الليل كله عن ولده ، مشتت الفؤاد ، شارد اللب ؛ ولم يكد الصبح يتنفس حتى خرج يبحث فى كل مكان ، ولكن جهوده ذهبت عبثاً . وأخيراً توجه إلى بيت صاحبه وشكى إليه فقد ولده .

قال الرجل : إنى سمعت ، وأنا خارج من دارك بالأمس : صوتاً من السماء يقول إن البغاث يحمل طفلا فى مخلبه ويطير به .

فقال الصديق الخائن : لعلك جننت ، كيف يحمل بغاث الطير آدمياً فى مخلبه ؟

قال الرجل : صه يا صاحبى ، فالبلد الذى تأكل فيه الفيران مائة من من الحديد يستطيع البغاث أن يحمل طفلا من بنى آدم .

ففطن الصديق الخائن إلى حقيقة الأمر ، وقال لصاحبه : لا تحزن فإن الفيران لم تأكل الحديد ، فقال الرجل وأنت أيضاً لا تحزن فإن البغاث لم يحمل ولدك .

* * *

وهكذا استطاع الرجل بالحيلة أن يحمل صاحبه على رد وديعته إليه .

إن الحيلة والمكر لازمان لدفع مضرة الماكر المحتال ، فكن وردة مع الورد وشوكة وسط الأشواك .

(جامع الحكايات)

٥٦

الزاهد والدنيا

اتخذ عابد من عبّاد الشام مقامه فى غابة ، وكان يعيش على أوراق الأشجار ، وكان ملك هذه الناحية فى رحلة فمر بهذا الزاهد ، وسأله أن يحضر إلى المدينة ووعده بأن يهيء له مكاناً للعبادة ، وذلك حتى يستفيد الناس من فيض بركاته ، فرفض الزاهد .

وتوسط أركان الدولة واقنعوه بالانتقال ، فإن أعجبه الحال أقام ، وإذا تضايق عاد إلى مكانه فى الغابة ؛ فجاء الزاهد للمدينة .

وأعد الملك مكاناً فى حديقة قصره الغناء ، وأرسل إليه جارية ذات حسن ودلال ، وأعقبها بغلام بديع الجمال ، لطيف الاعتدال .

وأكل الزاهد من الأكل الطيب ، ولبس أثواب الحرير ، وأخذ يمتع نظره بدلال الجارية وجمال الغلام .

وانصرف الزاهد عن العبادة ، ومال إلى الدنيا وغرورها .

ورغب الملك فى رؤيته ، فرآه قد تبدلت حاله ، فقد احمرت وجنتاه وابيض وجهه وغلظ ، وقد اتكأ على وسادة وعلى رأسه غلام بيده مروحة من ريش الطاووس ، فسر الملك من حسن حاله . ثم قال :

إنى أحب طائفتين من الدنيا ، الزهاد والعلماء .

وكان فيلسوف مجرب يسمع كلام الملك فقال :

شرط حب هاتين الطائفتين أن تقدم لهما الخير يا مولاى .

فقال الملك : وكيف يكون ذلك ؟

قال الفيلسوف :

أعط العلماء الذهب ليوسعوا مداركهم بالقراءة ، ولا تعط الزهاد شيئاً ليبقوا زاهدين .

(كلستان)

٥٧

الصياد والسمكة

وقعت سمكة كبيرة فى شباك صياد ضعيف ، فلم يستطع إمساكها وأفلتت منه مع الشبكة ؛ فلامه الصيادون فقال لهم :

يا إخوانى ، لم يكن لى نصيب فيها ، وكان لها بقية من أجل ؛ ألم تسمعوا القول المأثور :

الصياد الضيق الرزق لا يصيد فى دجلة ، والسمكة التى لم يفته أجلها لا تموت فى الصحراء .

(كلستان)

٥٨

أبطال ايران

زال

جاء دور الملك منوچهر ، فازدان عهده ، وقويت دولته ؛ بفضل سام والد الأبطال ؛ فقد كان سام هذا من القوة والجرأة والرأى بحيث كانت شئون المملكة كلها بين يديه . وقد جلس ذات يوم حزينا كئيباً ، يطيل الفكر فى أنه قد أصبح شيخاً كبيراً ولا ولد له ؛ وجاءته البشرى بأن الله قد سمع دعاءه وبأن زوجه حامل، فأخذ يعد العدة لاستقبال هذا المولود الذى كان يتمناه . وولدت الزوجة غلاما ذا شعر أبيض ، كأنه رجل مسنّ قد اشتعلت رأسه شيباً ؛ وتعجب الوالد من بياض شعر ولده ، وحدثته ألسنة السوء بأن من يولد بهذا الوصف يكون ابناً للشياطين ، وأنه لا يجوز أن يأويه فى داره .

وتطير سام مما سمع ، وكانت أعصابه خائرة من كثرة ما انتظر ومن ضيعة الآمال بعد أن رأى المولود وسمع عنه ما سمع ، وفى شوْرة من الغضب ، وفوْرة من التفكير المظلم أخذ الطفل وألقاه فوق الجبل . .

* * *

وأبصرت العنقاء وهى تحلق فوق الجبل طفلا رضيعاً ، فرأت فى وجهه دلائل السعادة والحظ العظيم ، ووجدته وحيداً لا يهتم بأمره أحد ، فأشفقت عليه أن يموت فى شعاف الجبل جوعاً وبرداً ، فنزلت إليه فأخذته بين مخالبها ، وطارت به إلى عشها ، وربته مع أفراخها .

وشب زال وعليه مظاهر الفتوة ، ورجاحة العقل ، وصدق التفكير ، وكان ينزل من عش العنقاء فيسير فى الجبال ، على قدميه حيناً ، وعلى ظهور الخيول البرية أحياناً ، وكان يصطاد السباع وغيرها من الوحوش ، وكانت الحيوانات الضارية إذا رأته تولى منه فراراً وتملء منه رعبا .

وكانت القوافل وهى تسير ، يرى رجالها الفتى ذا الشعر الأبيض ، ينتقل فى خفة ليس لهم بها عهد فى بنى الإنسان ، والعنقاء من فوقه تحلق كأنها تصاحبه وتحميه ، فأخذ الناس يتحدثون عنه ، ويضعون القصص حوله .

أما سام فإنه أحس أنه أخطأ إذ ألقى ابنه فى شعاف الجبل ، وشعر أنه أنكر النعمة التى أنعم الله بها عليه ، وأنه بدلا من أن يعنى بولده وينشئه ليلى مكانه بعد موته ، وليكون بطلا لدى الكيانيين ، ألقاه فى فورة من اليأس وسوء الظن على قمة الجبل ، وهو يعلم أن ليس هناك من يُعنى بغذائه وإيوائه . وأقضت الأفكار مضجع الشيخ ، فبدا هزيلاً علاه الهم والوصب . وذات ليلة رأى فى منامه رجلا يركب حصاناً عربياً ، فيقف ببابه ويدخل عليه فينهره نهراً شديداً لأنه ألقى ولده على قمة الجبل ، فأخذته العنقاء وربته مع أفراخها ، وجعلته ولدها ، ثم يأمره أن يذهب إلى حيث تسكن ، فيطالبها بابنه الذى هو أجمل أبناء إيران . وينهض الشيخ من نومه ، كأن المنام الذى

رأى حقيقة . فنادى الموابذة من أهل الحكمة ، وحدثهم بما كان من أمر زال وسلوكه معه ، فعاب عليه الموابذة ما فعل ، ونصحوه بأن يذهب إلى الجبل الذى ألقى ابنه فوقه فيصلى ويتضرع إلى ربه ، ويسأله أن يرد ولده إليه . فسار سام إلى حيث أمر ، وأخذ يتعبد ويدعو ويستغفر ؛ وأحست العنقاء بما يفعل الشيخ ، ورأت أن خير الولد فى أن ترده لأبيه ، ليأخذ مكانته فى بلاده وليصبح عظيم أبطالها . فحدثت «زال» بما فعل أبوه ، ونصحته أن ينزل إليه ، وأن يسير معه ، وأن يبدأ حياته مع الإيرانيين ، وأنبأته بأنه سيكون بطلهم الذى يزود عنهم الترك ، والذى يفاخر به ملوك الكيانيين .

وبكى زال وأخذ يتوسل إلى العنقاء أن تبقيه معها ، فإنه سعيد بحياته فى عشها ، وأنه ينظر إليها كأنها أمه ، وشكى إليها أباه الذى ألقاه صغيراً بلاشفقة ولارحمة . . ولكن العنقاء خففت من حزنه ، وهدّأت من روعه ، وقالت إنك ستعود لبلادك ، وسأعطيك ثلاث ريشات من صدرى فإن حزبك أمر فاحرق واحدة منها ، آتيك قبل أن يرتد إليك طرفك ، فأفرج لك كربتك ؛ وانتزعت الريش من صدرها وأعطته إياه .

ثم هبط الفتى إلى حيث أبوه يركع ويصلى . .

* * *

لم يكد سام يرى ولده حتى عرفه ، فهرع إليه وأخذه بين ذراعيه وقبله ، وسارا إلى الملك منوچهر ، فأخذ الملك يتحدث إلى « زال » فأعجب بحسن جوابه إعجابه بما هو عليه من مظاهر الفتوة والبطولة ، وأما سام فإنه منذ رأى « زال » قرت عينه ، واطمأن قلبه ، وأيقن أن سيكون له فى بطولة إيران خليفة قد يفوقه قوة ومحتدا . .

وجىء بالموابذة يعلمون « زال » الحكمة ، فكان كل يوم يزداد ثقافة وعلماً ، وكلما خرج أبوه إلى القتال ولاه سيستان فكان يحكمها وكأنه مرن على فن الحكم منذ صباه . .

وخرج « زال » ذات يوم للصيد ، وتوغل فى رحلته ، فإذا به على أبواب كابل التى يملكها « مهراب » من أبناء بيورسب ، ولم يكد هذا الملك يسمع بأن « زال » قد اقترب من عاصمة ملكه حتى قام مع حاشيته وخاصته فاستقبله أحسن استقبال ، وسأله أن يعطف عليه فيزوره فى بيته . ولكن « زال » خشى أن يجيب الملك إلى رغبته قبل أن يستشير أباه ، فإن الخصومة بين الإيرانيين والملوك من نسل بيورسب قائمة على أشدها بين القومين ، فأمهل « زال » الملك حتى يأتيه جواب أبيه على رسالة وجهها إليه يلتمس فيها الإذن بزيارة مهراب .

وخرج مهراب من عند « زال » ، فأخذ هذا يحدث أفراد حاشيته بما عليه مهراب من جمال ومهابة وجلال ، فحدثه أحد خاصته بأن لمهراب بنتاً تفوقه حسناً وجمالا ، وأنها أجمل من فى بيوت الملوك من مخدرات ، وأخذ « زال » يسأل محدثه فى أمر هذه البنت وكلما طال الحديث عنها زاد بها شغفاً وحباً ، ولما يراها .

***

وعاد « مهراب » إلى بيته فأخذ يتحدث إلى زوجه وبنته « روذبه » عن اعتدال قامة « زال » وحلو حديثه وما يبدو عليه من مخايل البطولة والنجابة والذكاء ، فشغفت « روذبه » به حباً ، ولما تراه . وأخذت الفتاة تفكر فى « زال » ، وفى حبها له ، فهى بالنهار شاردة البال ، حائرة النظرات ؛ وهى

بالليل مسهدة لا تعرف جفونها النوم ؛ وذات يوم باحت بسرها لجواريها ، فهدأن من روعها وداعبنها ، وأكدن لها أن الحب إذا تمكن من قلبين صادقين فليس إلى قتله من سبيل . وفى صباح يوم مشرق من أيام الربيع النضرة ، ذهب الجوارى إلى نهر يفصل معسكر « زال » عن المدينة ، ومن حوله الحدائق الغناء ، وأخذن فى جمع الورود فى أطباق الذهب ، ورآهم « زال » من مخيمه فسأل عنهن فقيل له هن جوارى « روذبه » يجمعن لها الأزهار . فأمسك قوسه وضرب طائراً فى الهواء فوقع عند الجوارى ، فأمر غلاماً من خدمه بأن يعبر النهر ويحضر الطير .

والتقى الغلام بالجوارى فسألنه عن الرامى ، فقال إنه « زال » بطل إيران وابن بطلها ، وأخذ يحدثهم عن جماله وصفاته ، فقلن له : ترفق ولا تحدثنا عن الجمال ، فإن فى القصر بنتاً هى ملكة الجمال التى لا تبارى ، والتى تفوق صاحبك حسناً ودلالا . ورجع الغلام إلى سيده بالطير ، وقص عليه حديث الجوارى ، فأعاده إليهن بالهدايا والجواهر ، وطلب إلى كبيرتهن أن تقابله . فلما رأى « زال » كبيرة جوارى « روذبه » أفضى إليها بحبه المكنون ، وحدثها بأنه راغب فى زواجها ، ولكنه يود لو رآها قبل أن يخطو هذه الخطوة ، ومهّد مع الجارية السبيل لمقابلة « روذبه » . وجاءت « روذبه » إلى سطح القصر ، خارج المدينة ، وكان على « زال » أن يصعد إليها ، فدلت ضفائر شعرها ليمسك بها ويصعد ، فشكر لها معونتها واستعان بحبل على بلوغ مرقاها . وفى هذه المقابلة الأولى اتفق الحبيبان على أن يتزوجا مهما تكن الصعاب ، ثم كتب بذلك إلى سام .

وشاعت أخبار ما بين « زال » و « روذبه » من العشق ، وتحدث الناس عنها فى بلاط مهراب وبلاط منوچهر ، أما مهراب فقد غضب غضبة

جاهلية وأراد أن يقضي على هـذه الصلة فهدأته زوجه ونصحته بالتريث والانتظار ، فكم يكون خيراً لبلاده أن تتم أواصر النسب بينه وبين بطل إيران ، وأما منوچهر فقد أنذر بأن صلة كهذه ستهدم بيت مهراب ، وتضم بلاده إلى إيران .

* * *

وأما سام فقد بلغته رسالة ولده ، وكانت أخبار عشقه لروذبه قد شاعت قبل قدوم رسوله ، فأخذ يفكر فى العواقب الوخيمة التى تترتب على هذا الزواج ، ولـكنه لم يكن ميالا لإغضاب ولده ، فجمع الموابذة وسألهم الرأى فيما يقدم عليه « زال » ، فاستشاروا نجومهم ورجعوا إلى كتبهم ، وعادوا إليه يرجونه الموافقة على تزويج ابنه من بنت « مهراب » ، فإن هذا الزواج سينتج ولداً يكون فخر إيران كلها وأعظم أبطالها جميعاً ؛ فأرسـل إلى ولده يوافقه على زيارة « مهراب » ، ويؤيده فى خطبة « روذبه » . وبينما « سام » يجلس فرحاً بولده إذا برسول الملك « منوچهر » يحضر حاملا إليـه الأمر بالقيام فوراً لغزو بلاد « مهراب » ، فلم ير بداً من تنفيذ أمر الملك ، وأسرع ليلحق بالرسول الذى بعثه لولده .

وعلم « زال » برغبة منوچهر في القضاء على « مهراب » ، وعلم أن هذا الملك قد هلع من الأخبار التى سمعها عن غزو قريب لبلاده ، فأراد أن يظهر إخلاصه ووفاءه لملك إيران منوچهر فعزم على أن يقتل زوجه وبنته «روذبه» ، وبذلك تنقطع صلات النسب التى يريد « زال » أن يعقدها معه ، والتى جر التفكير فيها جيشاً جراراً يغزو بلاده .

وطارت نفس «زال» شعاعاً مما سمع ، فإنه هو السبب فى أن يغير الملك القوى

على الملك الضعيف فينزع منه ملـكه ، ويذل بلاده ؛ فأرسل إلى « مهراب » يسأله التريث والصبر ، وأسرع لملاقاة أبيه وهو حاضر على رأس جيش إيران . فلما قابل « زال » أباه أكد له أنه سيدافع عن « مهراب » لأنه يحب ابنتـه وسيتزوجها مهما يكن رأى ملك إيران ، ولأنه هو السبب فى هـذه الغارة التى لن تنجح إلا إذا قطعت رأسه . فرأى « سام » أن يوفد ولده « زال » إلى الملك « منوچهر » لعله يقنعه بالموافقة على زواجه فتقف الحرب ويكفى الله المؤمنين القتال ، وينام الشر الذى صرّح أو كاد .

ويذهب « زال » عند « منوچهر » ، ويشرح له قصته ، وكانت فتوى الموابذة قد بلغت مسامعه ، وأصبح راضياً عن زواج « زال » ببنت « مهراب » ، ولـكنه أراد أن يستوثق من ذكائه ؛ فأمر بإحضار الموابذة وأمرهم أن يسألوه أسئلة ليتبين مدى فطنته وقدرته على حسن الإجابة ، فـكان « زال » يجيب إجابات بارعة حقاً . وفى آخر الجلسة أمر « منوچهر » بالخلع والهدايا « لزال » ثم أمر بعودة الجيش من الغزو ، وبأن يذهب « سام » مع ولده لخطبة « روذبه » بنت « مهراب » .

وسار «زال» مع أبيه وأعد «مهراب» لاستقبالهما حفلا رائعاً . وتم الزواج فى أبهج مظهر عرفته كابل والمدائن . وعاد «سام» وأسرته إلى سيستان . وحملت «روذبه» فلما جاءها المخاض تعذرت عليها الولادة ، وأصبحت حياتها وحياة ولدها فى خطر داهم . وجىء بالأطباء فلم يفلحوا فى إنقاذ الأم ، وكاد «زال» ييأس من رحمة ربه ، فبكى وقعد حزينـاً يكاد يشق ثوبه . وأخيراً تذكر أن العنقاء أعطته ريشات ثلاث من صدرها ، ليحرق واحدة منها إذا أمر حزبه ، فحرق ريشة منها ، فإذا العنقاء تهبط من السماء ، وعلى فمها ابتسامة ، فتحدث إليها «زال» عما هو فيه من ضيق بسبب تعذر ولادة «روذبه» ، فنهته عن البكاء ،

لأن الأبطال لا تزعزعهم الخطوب ، وأمرته بإعداد نصل ماض ليشق به جنب « روذبه » ، ثم يخرج الطفل من جنبها .

وهكذا فعلوا ، فلما نزل الولد وأفاقت « روذبه » ، وكانت قد أوشكت على الهلاك ، قالت « برستم » ، أى قد نجوت ، فسمى الولد « رستم » ؛ وقد رباه « زال » وتعهده جده « سام » فنشأ أعظم أبطال إيران .

رستم حامى الملوك

وشب رستم فتى مديد القامة ، عريض المنكبين ، مفتول الذراعين ، ثابت الجنان ، جميل القسمات ، ولم يكن أبرع منه فى ركوب الخيل ، ولا أقدر منه فى القنص ، ولا أقوى منه فى القتال والمصارعة ، وقد اختار لنفسه حصانا ، له من طاقة الاحتمال ، وسرعة الجرى ، والقوة ما لم يكن لحصان آخر ، وكان رستم يحب حصانه ويؤثره على سائر الحيوانات ، واسمه « الرُخْش » .

وذات يوم ركب رستم الرخش ، وسار فى الصحراء يتريض ويصطاد ، فأخذته سنة من النوم ، فربط الرخش بحجر ، وأسلم عيونه للكرى ، فلما أصبح لم يجد حصانه . ذلك أن جماعة من الترك قد حضروا فرأوا الحصان ، وكانوا كأنهم يبحثون عنه ، فحاولوا سرقته ، فبطش الرخش ببعضهم قبل أن يتمكن الباقون من إلجامه وسوقه إلى المدينة . صحى رستم من نومه فلم يجد حصانه فعز عليه أن يفارقه ، وعزم على السعى لإنقاذه ، وأبصر حوله فرأى آثار أقدام اللصوص وحوافر الرخش ، فسار على الأثر ، حتى إذا

أرخى الليل سدوله انتهى إلى مدينة فدخلها ، فعرفه أهلها وخشوا بأسه ، وأسرعوا إلى ملكهم فأخبروه أن « رستم » البطل قد أتى يبحث عن رخشه وأنه يظن أن سارقيه فى المدينة يقيمون . فسارع الملك لملاقاته ، ودعاه إلى قصره ، وأكد له أنه سيبحث عن الفرس وسيرده إليه . ثم أمر بإعداد مائدة للعشاء ، فأكل رستم وشرب كثيراً ، ثم أدخلوه مخدعاً ملكياً ليقضى الليل فيه ، فدخل وخلع ملابسه وأسلم نفسه للنوم .

وانتصف الليل ، وأحس رستم وقع أقدام فى غرفته ، ففتح عينيه فرأى فتاة لم تقع عيناه على أجمل منها ، وفى يدها شمعة من الكافور تضىء بها المكان ؛ فنهض رستم من فراشه وسألها من هى وكيف دخلت ؟ فأجابته بابتسامة ساحرة راضية : « أنا تمينة ، بنت الملك ، أنا التى تتبعت أخبارك منذ صباك فاشتقت إلى رؤياك ، ففكرت ثم دبرت ثم أمرت خدمى بسرقة رخشك حين عرفت أنك فى صحراء قريبة تصطاد ، ولم يكن يارستم من وسيلة لحملك على دخول مدينتنا وبلوغ المنى من مقابلتك بغير هذه الحيلة ، فإنك حريص على حصانك لأنه عزيز عليك . . فإن أنت تقدمت غداً إلى الملك فطلبت يدى وصيّرتنى زوجة لك فإنى رادة فرسك الذى تحب » وأعجب رستم بالفتاة ، ورأى فيها من الجمال ، وطهر البداوة ، وحسن المنطق ما قربها إلى قلبه وحببها إليه ، فوعدها بالزواج وأمهلها إلى الغد .

وتعلق قلب رستم بالفتاة ، وبات يفكر فيها بقية الليل ، وفى الصباح قابل الملك وطلب يدها منه ، فسر هذا بالنسب سروراً عظيما ، وأقيمت الأفراح فى المدينة ، وشارك الناس ملكهم فى احتفاله بزواج ابنته تمينة من بطل إيران رستم .

ولبث رستم أياماً مع زوجه ، وبينما هو معها فى حديقة القصر إذا به

يسمع الرخش يصهل صهيله إذا وقعت بالبلاد واقعة ، فأدرك رستم أن الرحيل قد آن أوانه ، وأن ليس بد من وداع زوجه . ولم يكن يستطيع أن يصحبها معه لأن الناس فى سيستان ينتظرون أن يتزوج بنتا من بيوت إيران العظيمة ؛ وكانت تمينة حاملا ، فأعطاها رستم خرزة زرقاء وقال إذا ولدت أنثى فضعى الخرزة فى شعرها ، وإذا ولدت ذكراً فاجعليها فى ذراعه يذكر بها أباه ، ثم قبلها ، وودع الملك وركب رخشه ، وسار إلى سيستان .

* * *

لم يكد رستم يصل إلى أبيه زال حتى طلب هذا منه أن يسرع لإنقاذ الملك كيكاوس من الجن فى مازندران ؛ وعجب رستم كيف جرؤ كيكاوس على السير إلى مازندران ، ولقد نهاه أكثر من مرة عن هذه المخاطرة ، فإن الجن حربهم لا يستهان بها ، وقد يكون فيها فناء الدولة إذا فنى فى الحرب أبطالها ؛ قال زال : إنك يابنى تعرف ما عليه كيكاوس من ضعف الإرادة وخور الرأى ، وإنك لتعرف ضعفه وتراخيه فى مجالس الغناء ، وقد قيل له إن مغنياً بالباب يريد أن يسمع الملكَ صوته ، فناداه فغناه أغنية عن مازندران وما فيها من حدائق كالجنان ، فلم يطق صبراً ، وقام يغزو بلاد الجان ، من غير أن يرجع إلىّ أو إلى أحد من مستشاريه . فلما ذهب إلى مازندران استعان ملكها بملك الجن « سپيدديو » ، فسارع هذا إلى نصرة الملك ، فأظلم الدنيا فى وجه كيكاوس ثم أوقع الهزيمة بجيشه وأسره وأفقده البصر ؛ وهو اليوم حبيس قلعة الظلمات ، وإن عليك يا بنى أن تنقذ ملكك مما ألم به من سوء ، وأن تعيده إلى عرشه ، وأن تعاقب أعداءه الذين اعتدوا عليه .

فركب رستم الرخش ، وسار يقطع الفيافى والقفار ، ولقى فى الطريق من

الأهوال ما تقشعر له الأبدان ، ولكنه هو ورخشه تغلبا على كل صعوبة حتى بلغا قلعة فى وسط الصحراء ، فانبرى ملكها أولاذ لقتال رستم فحاربه هذا وأسره ، وطلب إليه أن يدله على مازندران وما فيها على أن يعطيه ملكها بعد أن يخلص كيكاوس ؛ فقبل أولاذ ، ودله على الطريق .

وسار رستم ومعه أولاذ حتى بلغا حدائق عظيمة فقال له : هذا هو باب مازندران ، فتقدم رستم غير هياب وقتل الحراس ثم دخل المدينة فإذا به يرى قلعة فوق الجبل ، فقال له أولاذ إنها القلعة التى أسر فيها كيكاوس ؛ فصهل الرخش صهلة عالية سمعها ملك إيران فأدرك أن « رستم » قد جاء لإنقاذه . واقتحم رستم القلعة ، وقتل من قابله من حراسها ، ثم دخل فوجد كيكاوس مقيداً وقد فقد بصره ، فعانقه وشكره على النهوض لإنقاذه ، ثم قال إن نصر جيشنا لا يتم إلا بقتل ملك الجن سپيددیو ولكى تبلغه عليك أن تجتاز الجبال السبعة ثم تجده وراءها فى مغارة عميقة فى الصخر ، وقد أخبرنى الحكماء أن بصرى يرد إلىّ إن أنا غسلت عينى بدماء كبده ، فإذا بلغت المغارة وقتلته فلا تنس أن تشق بطنه وتحمل كبده معك .

وخرج رستم من القلعة ومعه أولاذ ليدله على الطريق ، فاجتاز الجبال السبعة ، وبلغ باب المغارة فربط أولاذ فى حجر ، ودخل وفى يده سيفه ، فهوى على من قابله من الحراس ، ثم سار حتى بلغ ملك الجن نفسه ، فوجده راقداً كالتنين العظيم والنار تقدح من عينيه ، فهوى عليه بسيفه فشقه نصفين ، بعد صراع عنيف ، ثم انتزع كبده وخرج .

ثم عاد إلى القلعة فأعطى كيكاوس كبد ملك الجن فمسح به عينيه فعاد مبصراً .

***

وجلس كيكاوس يفكر مع رستم فى إخضاع مازندران بعد أن قتل رستم من فيها من الجن الذين لن تقوم لهم قائمة بعد موت ملكهم ، فأرسل إلى ملكها رسولا يدعوه إلى الخضوع وتقديم الطاعة ، فاستغشى ثيابه واستكبر استكباراً ، ورد الرسول متوعداً ملك إيران ، مهدداً بحربه فى عقر داره ، إذا لم يعدل عن رأيه فى إخضاع مازندران .

وعاد الرسول فقص على كيكاوس ما صرح به الملك ، وسمع رستم الحديث فغضب وقال : هذا أمر لا تجدى فيه السفارة وحدها ، فإنى وعدت أولاذ بعرش مازندران ، وإنى ذاهب لأقتل ملكها وأضع أولاذ فوق عرشه ؛ واستأذن الملك وسار .

ولما اقترب رستم من قصر ملك مازندران استقبله رسله على الباب ، وكان بينهم فارس لا يشق له غبار ، عرف فى مازندران بأنه أقوى رجالها وأمهر فرسانها ، فشد على يد رستم ، وهو يحييه ، يريد أن يظهر له قوته ، فعصر هذا يده حتى قذفت الأظافر من أصابعه ؛ ثم أدرك رستم أن النية تتجه إلى توهين عزمه ، وتثبيط همته ؛ فانتزع شجرة عظيمة من جذورها ، وأمسكها بيده ، كأنها عصاة ، ودخل القصر . وعلم الملك أن فارسه الذى يعتمد عليه قد هُصرت يده هصراً وهو يسلم على سفير كيكاوس ، فأدرك أن السفير الجديدهو بطل إيران وفخر نبلائها رستم ، فقام وأحسن استقباله ، ولكنه لم يذعن لمطالبه ، فبارزه رستم فضربه ضربة قاضية ، فانقلب الملك حجراً كأنه قطعة من جبل ، فحمله رستم وسار به إلى كيكاوس .

فلما اقترب رستم من مكان ملكه ، أبصره الناس ومن بين يديه ملك

مازندران وقد سحر نفسه حجراً ، فأخذوا يكبرون ويهللون وينثرون عليه الزهور والجواهر ، فلما دخل على كيكاوس ألقى الملك المسحور على الأرض رهدده وأوعد ليحطمنه إذا لم يرفع عن نفسه السحر ، فظهر الملك على حقيقته فجلله رستم بالسيف فشقه نصفين .

ثم كافأ « أولاذ » ملك الصحراء بأن ضم إليه ملك مازندران ، وجعله من أتباعه المخلصين .

* * *

عاد كيكاوس إلى المدائن فاستقبل فيها أحسن استقبال ، بفضل ما أتيح له من النصر على الشياطين وقتله ملك الجن وإستيلائه على مازندران .

وكان كيكاوس ضيق الفكر ، سقيم الرأى ، فلم يكد رستم يستريح من غزوه وعراكه مع الجن ، حتى اضطره إلى خوض معركة أشد هولا من هذا كله ، مع العرب والترك .

* * *

ذلك أن كيكاوس ، بقصر نظره ، حسب الفضل فى قتل ملك الجن راجع إليه ، فلم يكد يصل إلى المدائن حتى أمر بإعداد الجيش لغزو هاماوران ، فسار على رأس جماعة وعبر البحر وأوقع الهزيمة بملكها . وكان لهذا الملك ابنة وحيدة رائعة الجمال ، فطمع كيكاوس فى زواجها ، فطلبها من أبيها ، فاعتذر بادئ ذى بدء ، ذلك أنه أبصر نفسه وقد فقد سلطانه وأصبح ملكا تابعاً — وما أشقى الملوك التابعين — ثم أبصر نفسه سيحرم من أعز الناس عليه وهى ابنته ، فاعتذر ؛ لكنه لقى من ابنته ميلا لكيكاوس ، فاضطر إلى قبوله زوجاً لها وهو راغم .

وعاد كيكاوس ظافراً ومعه زوجه الجديدة ، فأخذ أبوها يفكر فى حيلة ينتقم بها لنفسه ، وتعيد إليه ابنته ، فبعث إلى كيكاوس يدعوه لزيارة بلاده صديقاً ونسيباً ، فقبل كيكاوس الدعوة رغم ما نصحت به زوجه ابنة ملك هاماوران ، فاستعد للرحلة وأخذ زوجه وسار ملبياً . .

* * *

أما رستم فإنه بلغ سستان رافع الرأس ، مشرق الجبين ، فقابله أبوه زال واحتفلت البلاد بعودته ، وهناك أتاه رسول من عند زوجه تمينة تنبئه أن الله قد رزقه بنتاً ، فحزن رستم لهذا ، فقد كان يريد ولداً يخلفه فى بطولته ، ولكنه أرسل الهدايا من الجواهر وآنية الذهب لزوجه وابنته ؛ والحق أن تمينة لم تكن صادقة فيما أنبأت .

وجلس رستم يحدث والده زال بأن تمينة قد رزقت منه بنتاً ، فسر الجد بهذا النبأ وأخذ يتحدث مع ولده فى هدوء ودعة .

وفجأة دخل رسول مقبل من المدائن ، وأخبر «زال» أن كيكاوس قد ذهب لزيارة ملك هاماوران الذى تزوج ابنته ، فانتهز هذا الملك فرصة مجيئه زائراً بغير جيش يحميه ، وأسره فى قلعة عنده ؛ وأن أفراسياب ملك الترك لم يكد يسمع أن ملك إيران أسير فى بلاد العرب ، حتى أسرع فهاجم إيران واكتسح أراضيها ؛ وجلس على عرشها ؛ وأن البلاد اليوم فى أيدى الترك يسومون أهلها العذاب ، وأن الأمل فى تخليص الملك من يد العرب ، وتحرير إيران من جند الترك ، معقود على زال وولده رستم . فقام البطلان من سيستان ، وسارا لملاقاة أفراسياب فلقياه وهزماه وطرداه من إيران ، ثم اتجه رستم إلى هاماوران فركب البحر وخلص الملك من الأسر ، وأعاده وزوجه إلى المدائن .

وأدرك كيكاوس أن « رستم » أنقذ حياته المرة تلو المرة ، وأنه فى سبيل هذا قد اقتحم من المصاعب ، وركب من المخاطر مالا قبل لبشر به ، وأنه آخر مرة أنقذ إيران كلها من يد الترك وأوقع فى قلب ملكهم أفراسياب من الرعب والذعر ما اضطره إلى أن يولى منه فراراً ، فأعد كيكاوس حفلا عظيما ، ونادى النبلاء والموابذة ، وخلع الخلع والهدايا على رستم ثم قلده بهلوانية العالم .

سهراب ورستم

لم تكن بنتا تلك التى أنجبتها تمينة زوج رستم ، إنما ولدت طفلا باسم الثغر فسمته « سهراب » ، وكبر سهراب فوجد نفسه أشجع أقرانه وأقواهم ، وبدا بين الترك متميزاً عنهم ، فى ذكائه ، وإقدامه ، وقدرته فى الصيد ، وجلده فى الصراع ، فأخذ يلح على أمه أن تحدثه عن أبيه ، فإنه يرى نفسه من سلالة غير سلالات زملائه ، وكانت أمه مترددة أشد التردد فى إجابته ، فهى تريد أن تبوح له بسر أبيه لأن فى هذا فخراً أى فخر لفتاها ، وهى فى الوقت نفسه تخاف أن يسافر إلى حيث أبوه إذا عرف الحقيقة ؛ وحينئذ تبقى وحيدة ، وهى لا تريد ذلك . وأخيراً أخبرته أنه ابن رستم بطل إيران ، وحدثته عن الخرزة الزرقاء التى يضعها فوق ذراعه ، إنها رمز من أبيه إليه . وأصر الشاب على أن يذهب إلى أبيه ، فإنه أصبح لا يطيق صبراً على فراقه ، وهو يريد أن يكون بجانبه فى غزواته وحروبه ، واشتد حب الفتى لأبيه إلى حد أنه أزمع السير إلى إيران ليعزل ملكها ويولى أباه مكانه ، فإنه هو الذى يحمى عرش إيران ،

وهو أولى بأن يجلس على عرشها . . وعبثا حاولت الأم أن تثنيه عن عزمه ، فبكت وتوسلت ؛ إنه هو الذى بقى لها ، وإنها وقد حرمت من زوجها فقد وجدت فى ولدها العزاء ، ثم هى وجفة أن يقتله أفراسيات إذا عرف أن ابنا لرستم يعيش فى بلاده ؛ ولكن الشاب لم تضعفه دموع أمه ، ولم يثبطه توسلها ، وكاشفها بأنه ذاهب إلى ملاقاة ملك إيران ليخفضه عن عرشه ويرفع أباه رستم عليه .

وجاء الرسل لأفراسياب فحدثوه بالأمر ، وكان يعلم ما عليه سهراب من قوة وذكاء ، ويرى أنه بطل الترك الذى لا يبارى ، فلما علم أنه ابن رستم وأنه ذاهب لقتال ملك إيران ، قال إذاً فلنحط فى هواه ، ولنمده بجنود من عندنا ، فإن رستم ذاهب لقتاله مافى ذلك شك ، والوالد لم ير ابنه من قبل ، وكذلك الولد لا يعرف أباه ؛ وجاء هومان مستشار ملك الترك ، فصاحب سهراب فى رحلته ، لأنه يعلم المسالك والمفاوز إلى إيران ، ولأنه ممثل أفراسياب فى حاشية سهراب . وكان هومان حكيما من حكمائهم المشهورين ، وكان سهراب يسمع عنه ، ويعجب بسيرته ، وغزارة علمه ، وغالى نصحه ، فأولاه ثقته ، واتخذه مشيراً له يسأله كلما احتاج إلى رأى .

وهكذا سار الجيش يتقدمه سهراب وهومان ، لملاقاة جيش ملك إيران .

* * *

وفى الطريق وجد سهراب قلعة فاجتاحها وقتل ملكها ، وطلعت ابنة الملك فى زى الرجال ، فبارزته وكاد يقتلها فكشفت القناع عن رأسها فتدلى شعرها ، فأنزل سهراب يده ، فإن الأبطال لا تقتل النساء . وبلغ الخبر كيكاوس فأضج مضجعه ، وخشى مغبة هذا الهجوم ، فإن الناس يتحدثون

عن بطل جديد فى بلاد الترك ، لو صاحب أفراسياب لكتب له النصر ، فبعث إلى رستم يطلب منه الحماية ، ويستعجله القيام فإن الخطب جلل . وجاء الرسول إلى رستم فدعاه هذا إلى الشراب ، وتثاقل فى النهوض إلى الحرب ، فإنه لم يكن يعبأ بالترك ، وهو يعلم أنه يغلبهم حيثما يدركهم ، وأن كيكاوس جبان رعديد ، يخيل إليه ضعفه وخوره أن الترك على أبواب داره وليس إلى دفعهم من سبيل .

وبعد أيام قام رستم ومعه الجند ، وحث السير لملاقاة سهراب ، وفى وسط الصحراء تلاقى البطلان : أما سهراب فقد تقدم وفى نفسه أن يعرف حقيقة خصمه ، فإنه شعر بقلبه يخفق حين رآه ، وما خفق قلبه من قبل وهو يلاقى الأهوال ويواجه الجبابرة ، وأحس السيف يرتعد فى يده ؛ إنه يريد أن يلقى السلاح وأن يجلس جانباً مع هذا الخصم ليتحدث معه ؛ هو يحب هذا الخصم ، ولا يريد أن يلقاه كما يلقى العدو عدوه ، إنما يريد أن يلقاه كما يلقى المحب حبيبه ، أيكون هذا الخصم رستم ، أهو الوالد الذى يحمل خرزته فوق ذراعه ؟

أما رستم فيتقدم حانقاً ، حانقاً على هؤلاء الترك ، يغرهم أن يجدوا فتى شجاعاً فى بلادهم فيخيل إليهم أنهم قادرون على غزو إيران ، حانقاً لأنه لم يكد يستريح من حملتهم الفاشلة التى طردهم فيها وألحق الهزيمة بملكهم أفراسياب ؛ وإذاً فليقدم على هذا البطل الجديد ، وليعلمهم أن فى إيران ملكاً له بطل يحميه .

وأقبل البطلان ، وفى أيديهما سيفان :

ورفع رستم سيفه يريد أن يقضى به على عدوه ، فقال سهراب القوى الجبار فى رفق واحترام : تمهل يا صاحبى أتكون أنت رستم ؟

كلا يا فتى لست أنا رستم ولكنى عبدٌ له .

ولم يرد رستم أن يبوح باسمه لسهراب ، لأنه يظن أن هؤلاء الفتيان الترك لهم من الصلف والغرور والخبث والاستكانة وقت الحرج ما يحملهم على تملق الأبطال لينصرفوا عنهم بغير قتال ، ليكسبوا شرف الوقوف معهم للمبارزة وليغنموا السلامة بالعدول عن القتال ، ومن يدرى فغداً يذهب هذا الغلام لأفراسياب فيحدثه بأنه لقى رستم بطل إيران ، بعد أن قتل من بارز من القواد ، فلم يقدر أحدهما على خصمه ، فتصالحا وشربا معاً وانصرفا صديقين !
وإذاً فلينكر أنه رستم ، وليخيل لسهراب أنه عبد له ، وليبدأ القتال ليقضى على هذا الشاب الذى يراه وقد غلب حياؤه على جرأته ، ورفقه على إقدامه .

وتنبه سهراب فإذا خصمه عنيد جبار ، إنه ليس برستم ، فليقدم إذاً على صراع لاهوادة فيه ولا رفق ، فإنه لا يقاتل أباه ، وهو قد عرّف بنفسه بما يكفى لإزالة كل لبس ، ولو كان خصمه رستم لأدرك الحقيقة ، ولجاش فى نفسه من العوامل ما يضطرب له صدر سهراب . .

وبدأ السيفان عملهما بلا جدوى ، حتى تكسر النصلان . .

وعاد الوسواس إلى نفس سهراب ، إنه خصم جبار ، إنه لا يتصور هذه القوة ، والجرأة ، والمهارة فى إمساك السيف ، عند غير بطل إيران رستم ، فهو إذاً يعيد السؤال ، ألست أنت رستم ؟ فإذا بخصمه العنيد يجيبه :

إلى عمودك يا فتى الترك ، وما ضرك أن تجهل من أنا ؟ إلى عمودك فإن الوقت أضيق من أن نتحدث ؛ وأسرع رستم فأمسك عموده ، كما أسرع سهراب إلى عموده ، والتحم الرجلان ، كل يهوى على صاحبه ، كأسدين امتلآ قسوة فجردا من الرحمة ، وتحطم العمودان وتمزقت الضروع ، وفل الحديد ، ولمّا ندرك الرحمة قلوباً قدت من الصخور .

وجلس الخصمان ، ينظر كل منهما إلى صاحبه ، وسهراب يريد أن يتكلم ، ولكن ما جدوى الكلام بعد الذى قال ! ورستم يعجب لهذا الفتى من أين له هذه القوة ، ثم ما هذه العظمة التى تبدو عليه فى القتال ، ولقد حارب أقوى الإنس وأخبث الجن ، ولكنه لم يصارع مثل سهراب ، كأنه من نسل سام ، كأنه واحد من أسرتنا .

ولا يكاد هذا الخاطر يمر بذهنه حتى يتبدد ؛ من أين يكون وليس لى ولد ! حدثتنى تمينة أنها وضعت أنثى ، فبعثتُ إليها بالجواهر وآنية الذهب ، ولو ولدت ذكراً لكان بطلا يجرى على أثر أبيه جريان رستم على أثر زال ، وزال على أثر سام ؟

ومضت ساعة استراح فيها البطلان ، فقاما وتلاحما ، وأمسك كل منهما بتلابيب صاحبه ، ها هو رستم يمسك معقد منطقة سهراب ويجذبه منها ، وسهراب كالطود لا يتحرك ، وها هو سهراب يحاول أن يوقع رستم أرضاً ، ونفسه لا تطاوعه . وتعب الخصمان ، وتراجع سهراب إلى الوراء قليلا ، يكاد يتميز من الغيظ ، ألا ترحم شيخوختك ايها الشيخ ؟ ألا تخاف فتوتى وشبابى ؟

ويقدم رستم كالأسد المنهك : تقدم أيها الشاب ، تقدم فإنى صارعك صرعة يتحدث بها الناس فى إيران وتوران ، ويتقدم سهراب غاضباً كالليث الهصور فيرفع رستم بذراعيه ثم يلقيه على الأرض . . ولا يقتله ؛ إنه يغلبه ولكنه لا يقضى عليه . . إن يده لا تطاوعه على إخراج مديته يجز بها رقبة خصمه ؛ كلا ، كفى أنه غلبه . . ويفيق رستم فيطلب الهدنة من الفتى الثائر الغالب ، فينظر سهراب إلى خصمه الجاثم على الأرض ويقول :

إبق مكانك ، فإن حسابى ليس معك ، إنما حسابى عند كيكاوس ، إنى

ذاهب إليه ، أقتلع خيامه وأقتل جنـده . . وانصرف سهراب إلى معسكر كيكاوس ، وأفاق رستم فأراد أن يذهب إلى معسكر أفراسياب ، ولـكنه خشى على كيكاوس أن يقتله سهراب أو يأسره ، إنه بطل إيران وحامى ملـكها فليسرع إذاً لإنقاذ الملك ، وجرى فلحق سهراب ، وكان الليل قد أقبـل بظلامه ، وهدوئه ، فطلب المهلة من سهراب . . أى مهلة يطلب الشيخ البطل ، ألم ير إلىّ وقد اقتلعته من على الأرض اقتلاعاً وألقيته مجندلا على الأرض ، ألم ير أنه كاد يلقى حتفه من شدة ما ارتطم بالصخرة جسده ، ولـكن أليس من الخير أن أهادنه وأمهله إلى الغد ، إنى أريد أن ألقى هومان فأسأله إذا كان هذا الخصم هو رستم والدى ؟ إن يدىّ لا تطاوعانى على قتله مهما بدا من قسوته وجفائه .

ونظر سهراب إلى رستم وقال : إذاً إلى صباح الغد كما تريد ، وانصرفا .

* * *

ألا ترى ياهومان أن هـذا البطل أقرب ما يكون إلى رستم ، ولقد والله ألححت فى سؤاله فألح فى النفى ، إنه يقول إنه عبد من عبيد رستم . ولـكنى لا أرى هذه القوة لغير رستم ؟ أرأيت رستم ياهومان ؟ نعم ياسهراب ، رأيت رستم وأعرفه جيداً ، والحق إن هذا الرجل يشبه رستم كثيراً ولـكنه ليس هو . ولمعت عينا هومان الخبيث الأثيم بالشر ، إنه يهيء القتل لرستم ، فإنه مقتول لا محالة ، إن قتله سهراب ، فقد قضى الأمر ، وإن قتل هو سهراب فقد قتل ولده وقضى الأمر أيضاً . فهو إذن يؤكد أن رسـتم رجل آخر ، وهكذا اطمأن سهراب .

وإذاً فليذهب سهراب إلى فراشه ، ولينم هادئاً ، فإنه لا يقاتل رستم ،

إنما هو يقاتل عبداً له . ومع ذلك فقد ذهب سهراب إلى فراشه ولكنه لم يستطع أن ينام ، إنه شارد اللب ، إن شيئاً خفياً يقلقه ويذهب عنه النوم ، وعبثاً يحاول أن يقنع نفسه أن ينام ليصبح مستعداً لما هو مقبل عليه ، إنه يفكر في محادثة خصمه ، وهو غير مرتاح لقول هومان .

أما رستم فقد ذهب ونام مستريحاً استعداداً للغد ، إنه شيخ مجرب ، وهو يدرك أن الراحة لازمة لنَصَب العراك ، وجلد الصراع ؛ ولكن ما بال هذا الفتى التركي يتقرب منه كلما تمكن من ذلك ؟ إنه لم يقتلني وكان يقدر على ذلك ، إنه يتلطف معي في قتاله ، إن شيئاً يمنع هذا الفتى من الفتك بي ، ولكن ماذا عسى أن يكون هذا الشيء ؟ إنه نقص في تجربة الفتى ، إنه شاب في مقتبل العمر أوتي من القوة ما لم أر لشاب مثله ، ولكنه لم يجرب الحياة بعد ، أو لعله يرهبني . . . وذهب فنام وقام مستريحاً مستعداً .

* * *

وجاء الصباح والتقى رستم وسهراب . إن سهراب لا يرفع يده بالضرب ، ولا يقبل على صاحبه للصراع ، إنما هو مقبل عليه باسم الثغر ، راضي النفس ، محيياً تحية الصباح ، سائلا عما كان عليه نوم المساء ! ورستم يعجب لهذا الذي جاء للقتال فنسي نفسه ، فهو ينهر صاحبه ويقابل رقته بخشونة ، وإقباله بصدود ، وتحيته بجفاء ، إلى القتال .

واشتبك الرجلان ، وعاد سهراب إلى غيظه ، وخيل إليه أنه يتملق الشيخ ، ومن يدري ، لعل الشيخ يحسبني أخاف منه أو أني عن غلبه عاجز ، ألا فلأرينه بأسي وإقدامي ، ولأضربنه ضربة يدرك منها أني ابن رستم . وهجم سهراب فألقى خصمه على الأرض ، واستل سيفه يريد أن يقطع رأسه .

ولـكن رستم حدثه بأن ليس من عادة الأبطال أن يقتلوا المغلوب أول مرة ، إنما يحق له ذلك إذا أوقعه مرة ثانية ، وطلب إليه أن يمهله للغد ؛ وسهراب موافق على هذا الرأى ، مسارع إلى إجابته ، إنه واثق بقوته ، موقن أنه قادر على غلبه ، ولـكنه لا يريد أن يقتله أبداً . . . فليمهله يوماً آخر .

* * *

يا هومان إن قلبي لا يطاوعني على قتل هذا الشيخ ، إنى أقوى منه لأنى شاب وهو شيخ كبير ، إنى أخاف أن يمسه منى الضر ، فأنا أرفق به ، وأحسن معاملته ؛ يا هومان إن قلبي يحدثنى أنى أقاتل أبى ، ولو والله تأكدت أنه ليس أبى لصرعته بضربة واحـدة . إنه يا هومان وقع أمامى اليوم ولـكنه حدثنى أن ليس من شيم الأبطال أن يقتلوا من وقع منهم لأول مرة ، وطلب أن أمهله إلى غد فأمهلته . .

وأبرقت عينا هومان ، الشيخ الشرير القاسى ؛ أتركته اليوم يا سهراب ؟ إنك كمن أوقع الأسد فى كمين فلم يقض عليه ليعود الأسد فيفترسه . إنه سخر منك يا سهراب ، وإنى أخاف أن يغدر بك غداً ، فاحترس منه ، ولا تتوان فى القضاء عليه ، ودع عن نفسك الوساوس ، فإنه ليس برستم ، ألم أحدثك أنى أعرف رستم خير المعرفة ، إنه ليس برستم . .

* * *

وفى اليوم الثالث التقى البطلان ، وأقبل سهراب يلاطف رستم ، فلم يأبه هذا له ، بل هجم عليه كالأسد الجائع فألقاه على الأرض ، ثم استل سيفه فهوى به عليه ، وصاح صيحته ساعات النصر : رستم . . « رستم ! من رستم ؟

أبى ، إنه قاتلك ، إنه سيقطعك إربا انتقاما لقتل ولده سهراب ! » ورفع رستم السلاح ونظر إلى سهراب ، يكاد ينفطر قلبه ، « لم يكن لرستم ولد يا فتى » ، « كلا بل إن له ولداً هو سهراب الذى قتلته » .

وعاد رستم بذاكرته إلى تلك الأيام الحلوة التى قضاها مع تمينة ، وتخيل ابنه منها وقد شب وبلغ عمر سهراب ، ولكن تمينة أخبرته أنها رزقت أنثى . .

وكادت نفسه تطير شعاعا ، وقال أفصح يا سهراب ، إنى أنا رستم .

فكشف سهراب عن ذراعه ، فرأى رستم الخرزة التى أعطاها لتمينة . . فأدرك الحقيقة التى حاول أن يفهمها له سهراب ، فلم يلق إليه بالا . ولم يستطع رستم أن يضبط نفسه ، فهوى بجانب ولده ، واحتضنه وعلت بالأنين زفراته ، كالأسد الجريح . . وصهل الرخش صهيله فى الملمات ، وأسرع جثا بجوار سيده والدمع يتساقط من عينيه الحزينتين . .

وجاء العظماء من معسكر كيكاوس ، فرأوا بطلهم وقد شق قميصه وارتمى بجانب ولده يبكيه ، وشاهدوا سهراب والدمع يترقرق فى عينيه ، والدماء من جرحه تسيل ، وذهبوا ليحضروا دواء عسى أن ينفع الدواء ! وأفاق رستم فرأى ابنه مضرجا فى دمائه ، ورأى السيف الذى قتل به ولده ، فأمسكه وأراد أن يقتل نفسه ، فمد سهراب يده فى عطف ورفق ومنعه . .

« فيم الجزع يا أبتاه ، لقد أجريت البطولة فى دمى ، فشببت أشجع شبان بلدى وأقوامهم ، وطالما بذلت حياتى رخيصة فى سبيل بلادى ، ومنذ ثلاثة أيام وأنت تنعم بى ، وتمتع ناظرك برؤياى ، ولقد لمست ما وهبتنى من قوة وجلد ؛ فلتعش يا أبت قرير العين ، راضى النفس ، ولتنعم بأنك كان لك ولد ، لقيت فيه نفحة من بطولتك ، وصورة من قوتك ، حتى إذا مات ، مات على يديك ميتة الأبطال ؛ يا أبت ارع أمى ولا تدعها وحيدة يقتلها الحزن ، وادع إلى

الصلح بين قومك وقومها ، فلا هؤلاء بملاقين مثل سهراب من بعدى ، ولا أولئك مثل رستم من بعدك ، فليرض كل منهما بأرضه ، وليعش فيها سعيداً .

أما هومان فليجزه الله بسوء صنعه . »

ثم نظر سهراب إلى رستم نظرة الوداع ، وفاضت روحه إلى بارئها .

٥٩

الملك والشجرة

أودع شاب شيخاً كبيراً مائة تومان (عملة فارسية) ولما طلب أمانته من الشيخ أنكرها وقال إنك لم تودعنى شيئاً ؛ فذهب الشاب ورفع قضيته للملك ؛ فطلب الملك الشيخ وسأله لماذا لم يرد لهذا الشاب أمانته ، فقال الشيخ إنى لم آخذ منه شيئاً .

قال الملك للشاب : ألم يرك أحد وأنت تسلمه النقود ليشهد بذلك ؟

فقال الشاب : كلا يا مولاى ليس لدى شاهد على ما أقول .

فسأل الملك الشيخ أن يحلف بأنه لم يأخذ مال الشاب ؛ ولكن الشاب لفت نظر الملك إلى أن مثل هذا الشيخ الخائن يحلف حانثاً ولا يبالى .

فسأل الملك الشاب : عند ما أسلمته مالك أين كنت تجلس ؟

قال الشاب : كنت أجلس تحت شجرة فى الصحراء ؛ فقال الملك : إذاً كيف تقول أن ليس لديك شاهد ، إذهب إلى الشجرة ومرها أن تحضر فوراً عندى . فقال الشاب متعجباً : إنى أخاف ألا تطيع الشجرة أمر مولاى ؛ فقال له الملك : إذاً خذ هذا الخاتم وأرها إياه ، تأتى معك .

فتبسم الشيخ الماكر وظل صامتاً ، وأما الشاب فقد ذهب ينادى الشجرة .

وبعد مدّة سأل الملكُ الشيخَ قائلا : ترى هل بلغ هذا الأحمق الشجرة ؟ فقال الشيخ : كلا يا مولاى إنه لم يصل إليها بعد .

وبعد ذلك حضر الشاب فأخبر الملك أنه أرى الشجرة خاتمه فلم تحرك ساكناً ، فضحك الملك وقال له : ولكنها شهدت يا بنى . ثم أمر الشيخ برد المبلغ وعاقبه .

(جامع الحكايات)

٦٠

الدرويش المتلاف

جلس أحد الملوك فى مجلس سمره ، يشرب مع حاشيته ويلهو ، فصاح قائلا : ما أطيب وقتنا هذا ، فإنا لا نفكر فى خيرٍ أو شرٍ أو إنسان .

وكان تحت النافذة درويش ينام فى البرد عارياً فسمع قول الملك فقال : يا مليكنا إذا صفا لك الجو فإنه يصفو لنا .

فسر الملك بهذا الكلام ، وأطل على الدرويش وقال له : أعد ذيل قميصك فإنى ملق إليك صرة بها ألف دينار .

فقال الدرويش : ليس علىّ قميص يا مولاى .

فبعث إليه الملك بخلعة ومعها الألف دينار ، فأتلف الدرويش المال بغاية السرعة . فإن المال لا يبقى فى يد الأحرار ، كالصبر فى قلب العاشق ، أو كالماء فى الغربال .

* * *

وأبلغ بعض رجال الحاشية الملك بما كان من أمر الدرويش المتلاف ، ولم يكن الملك منشرح الصدر فى هذا الوقت ، فغضب غضباً شديداً ، وأمر بطرد الدرويش ، قائلا إن هذا الدرويش لا يعرف أن خزينة بيت المال لقمة المساكين وليست طعمة إخوان الشياطين .

إن الأبله الذى يشعل الشمع الكافورى والنهار مضىء ، لا يجد زيتاً يضىء مصباحه فى الليل البهيم .

فقال الوزير الطيب :

إن الخير أن نقسط لهؤلاء الفقراء فى المنح ، فنجعلها قليلة ودائمة ، حتى لا يسرفوا فى إنفاقها ، أما أن نفتح لهم صدورنا فنوسع عليهم الرزق ، ثم نضيق بهم ذرعاً فنملأ قلوبهم باليأس ، فليس من الخير فى شىء .

إن عطشى الحجاز لا يلتفون حول عين ماء مالح ، وحيثما وجد الماء العذب يجتمع حوله الناس والطير والنمل .

(كلستان)

٦١

سعدى فى بيت النار

رأيت فى سومنات (فى بلاد الهند) صنما من العاج ، مرصعاً بالجواهر ، كمنات فى الجاهلية . وقد أحسن المثـال صورته ، مخرجاً أحسن ما يستطيع إخراجه . ورأيت القوافل أقبلت من كل حدب وصوب ليرى رجالها هـذا التمثال الذى لا روح فيه . لقد طمع فى رضاء هذه الصورة ملوك الصين وچكل ، كما طمع سعدى فى رضا حبيبه الذى قُدَّ من الصخر قلبه . واتجه القوم من كل مكان يتضرعون إلى التمثال الأصم الأبكم ؛ ووقفت حائراً فى كشف ما أرى . كيف يعبد الإنسان الجماد ؟

وكان لى صديق مجوسى ، نسكن سوياً فى غرفة واحدة ، وتربطنا صداقة وثيقة ، فقلت له :

يا برهمى إنى من أمر هذا البيت لفى عجب عجاب . إنى أرى الناس قد فتنهم هذا الصنم ، فقيّدهم فى بئر الضلالة . إنه لا قوة فى يديه ، إنه لا تقوى على الحركة رجلاه ، وإنك لو ألقيته أرضاً لما استطاع من العثرة نهوضاً .

ولم أكد أفرغ من حديثى مع المجوسى حتى ضاق صـدره ، واستشاط منى غيظاً ، ثم ذهب إلى المجوس وشيوخ بيت النـار فحدثهم بما كان منى ؛ فأدركت أن موقفى منهم أصبح عسـيراً ، وتيقنت أنى لن ألقى منهم خيراً .

وتهافت عليّ المجوس قراء الپازند (تفسير الافستا كتابهم المقدس) كما يتهافت الكلاب على العظم . إن الطريق المضل عندهم هو الطريق السوى ، والطريق السوى هو المضل . والرجل مهما يكن علمه وفضله فهو جاهل عند أهل الجهل .

ونظرت فإذا القوم يحدجوننى بأنظارهم وقد ضاقوا بى ذرعاً ، فكنت كالغريق لا يجد له فى لجة البحر الثائر خلاصاً . وإذا رأيت جاهلا قد غضب ، فإن السلامة فى اللين والتسليم . فرفعت صوتى مثنياً على كبير البراهمة قائلا : ياشيخ التفسير وأستاذ الزند ، إنى أيضاً يطيب لى حسن هذا الصنم ، إنه جميل الشكل ، تجذب قامته القلوب . لقد أعجبنى منظره ولكنى لا أعرف معناه . لقد جئت هذا المعبد زائراً منذ أيام ، وإنه لمن العسير على الغريب أن يفرق بين الحسن والقبيح . ولذا فإنى ألتمس منك أن تدلنى على الحق فيما أرى ، فإنك كبير هذا المعبد ، وأنت تعلم أن العبادة لا تتأتى بالتقليد ، وإنه سعيد من يطلع على الحقيقة ويعمل بها . ألا حدثنى عن حقيقته حتى أعبده عن معرفة وإيمان .

فأضاء وجه البرهمى من السرور وقال لسعدى :

يا حسن الطبع إن سؤالك صواب وصنعك جميل ، وإن من جد وجد ، ومن سار على الدرب وصل . وقد رأيت مثلك أصناماً فى أسفارى ولكنى لم أحط بسرها خبراً . إنك ستجد هذا الصنم يرفع يديه إلى الله فى الصباح ، فإذا شئت فابق هنا الليلة ، حتى تراه يتجه بيديه إلى الله .

* * *

وبات سعدى فى بيت النار تلك الليلة ، مؤتمراً بأمر الشيخ ، مثله كمثل بيزن حفيد رستم بطل إيران ، الذى أحبته بنت أفراسياب فحملته قهراً إلى بيتها فلما رآه أبوها سجنه فى بئر بعيدة الغور : كذلك كان سعدى فى بيت النار .

وطال ليل سعدى كأنه يوم من أيام القيامه ، ورأى المجوس من حوله يصلون بلا وضوء . إنهم لا يستخدمون الماء ، وتفوح رائحتهم النتنة ، كما تفوح رائحة الجيف فى الشمس . لعله ارتكب أمرا إمرا ، لقد لقى جزاءه عذاباً أليما تلك الليلة . وقضى ليله فى هذا الشقاء ، واضعاً يداً على قلبه ، رافعاً الأخرى يدعو ربه ؛ حتى انقشع الليل بظلمائه ، وتنفس الصبح بضيائه ، كأن خطيب الليل ذا الرداء الأسود قد امتشق حسام النهار بلا حرب ؛ وصاح الديك منادياً البرهمى فى الفضاء .

وأضاء النهار ، وأقبل المجوس الفاسدون الذين لم يغسلوا وجوههم ، أقبلوا من كل باب وواد وشارع ، حتى لتظن أن التتار قد أقبلوا من زنجبار . لم يبق رجل فى المدينة لم يحضر إلى بيت النار ، وازدحم بهم الفناء حتى لم يكن مكان لإبرة بينهم .

وكان سعدى منهوكا ، مثقل الجفون ، فإذا به يرى التمثال ، فجأة ، وقد رفع للسماء يديه . وهنا ارتفعت أصوات المجوس ، دفعة واحدة ، حتى لتظن أنك تسمع بحراً صاخباً متلاطم الأمواج : ثم أخذ الوافدون فى الانصراف رويداً رويداً ، حتى إذا خلا المعبد منهم نظر إلىّ شيخه مبتسما وقال : ما أشك أن الحقيقة تكشفت اليك ، وأن الباطل قد زهق . فلما رأى سعدى أن الرجل قد استولى عليه الجهل ، لم يستطع أن يعارض أو يقول الحق ، بل لجأ إلى التقية ، فأخفى الحق عن أهل الباطل .

وإذا رأيت نفسك ضعيفاً غاية الضعف أمام القوى الجبار فليس من الخير أن تظهر الرجولة فتتكسر أصابعك .

رأى سعدى أن الخير فى أن ينافق ، فبكى معتذراً عما قال ، نادماً عليه . فرق له قلب الشيخ ومال إليه ؛ ولا عجب فإن السيل يحرك الصخر . ولما رأى

الناس أن شيخهم قد رضى على سعدى ، أقبلوا عليه وسعوا إلى خدمته ، وأمسكوا بذراعيه إجلالا وتبجيلا . وتقدم سعدى من التمثال العاج الذى ركب فوق كرسى من الذهب على تخت من الساج ، تقدم إلى هذا التمثال وطلب الشفاعة وقدم الاعتذار ، ثم قبل يد الصنم ، لعنة الله عليه وعلى عبدة الأصنام .
وصار سعدى كافراً عدة أيام ، تقليداً للبراهمة ، كما أصبح من البراهمة يتلو الزند ومقالاته مثلهم ، حتى أصبح نادماً على ما صار إليه من حظوة فى بيت النار .

* * *

وأبصر سعدى فإذا تحت مقعد الشيخ كبير المجوس ستارة مكللة بالذهب ، وخلفها حبل يتصل بيد الصنم ، فأدرك على الفوز سر تحريك يدى التمثال ، فإن الشيخ يحركه ، فى يسر ، كأنه داود يصير الحديد شمعاً فى يديه . وهكذا كان الصنم يرفع يديه للسماء حين يجذب البرهمى الحبل .
وعرف الشيخ أن سعدى قد كشف السر ، فخجل ، ومن الخطيئة أن يذاع هذا السر ، فجرى من أمام سعدى فلحق هذا به ، وأمسك بتلابيبه وألقاه فى بئر فى الطريق :
فإنى أعرف أنه إذا عاش يهدر دمى حتى لا أبوح بالسر الذى رأيت ؛ ومن الخير أن لا تتوانى عن القضاء على خصمك إذا سنحت لك الفرصة ، فإنه لن يرجو غير هلاكك ما عاش .
قال سعدى :
وأخذت أرجم الكافر بالحجارة حتى هشمته تهشيما ، ثم هربت من هذا البلد . فإن عليك أن تهرب من رائحة قصب السكر إذا أشعلت فى مزرعته

النار . وإذا قتلت ابن الأفعى التي تعض الناس فلا تبق فى البيت الذى قتلته فيه . وإذا حطمت عش النحل فلا تنتظر أمامه فإن الخطر لا يلبث أن يحدق بك . ليس فى أوراق سعدى غير هذه النصيحة : لا تقف بجوار جدار هدمت أساسه .

وانتقلت بعد ذلك من الهند إلى اليمن ثم إلى الحجاز ، ومن شدة ما لقيت من الهول فى بيت النار لم يحل مذاقى حتى اليوم .

(بستان)

٦٢

وزير

ذهب جماعة إلى وزير السلطان محمود ، حسن الميمندى ، وسألوه ماذا قال السلطان فى قضية تعنيهم .

فقال الميمندى : إن السلطان لا يخفى عنكم شيئاً .

قالوا : ولكنك وزير المملكة ، والسلطان يسر إليك برأيه حين لا يريد أن يبوح به لنا .

قال الوزير : وما دام الأمر كذلك ، فعم تسألون وأنتم تدركون أنى لا أفشى له سراً .

(كلستان)

٦٣

الملك صالح

خرج الملك صالح ، من ملوك الشام ، مبكراً من قصره ليتفقد شئون رعاياه ؛ وقد سار فى الشوارع والأسواق ملثم الوجه ، كعادة ملوك العرب ، حتى لا يعرفه الناس ولا يخفى عليه من أحوالهم شيء . وقد كان هذا الملك صادق النظر ، محباً للدراويش ؛ ومن توفرت له هاتان الصفتان فهو الملك الصالح حقاً .

وساق حب الاستطلاع الملك إلى الدخول فى المسجد ، حيث يبيت الدراويش ، فوجد به درويشين راقدين ، كلاهما حزين القلب ، كسيف البال . كانا راقدين ولكن النوم لم يزر جفونهما ، وأنى لهما الكرى وهما عريانان والجو برد زمهرير ؛ كانا راقدين يرقبان طلوع الشمس ، كأنهما الحرباء تنتظر الدفء والنور .

فدنا الملك منهما فسمع أحدهما يقول لصاحبه :

سيكون علينا ملك يوم القيامة ، ولو أتيح لملوك الدنيا هؤلاء الذين يعيشون منغمسين فى اللهو ، دائبين على اللذات ، أن يدخلوا الجنة مع أمثالنا من العاجزين ، فإنى لن أرفع رأسى من على حجر قبرى . إن الجنة مأوانا ، نحن الذين نعيش وأغلال الهموم فى أرجلنا . ماذا أخذنا من هؤلاء الملوك حتى

يضايقونا بوجودهم معنا فى الآخرة . ولو وجدت ملكنا « صالح » يدنو من جدار الجنة فإنى سأحطم رأسه .

* * *

فلما سمع الملك صالح كلام الدرويش أدرك أن الخير فى أن لا يبقى بجوارهما وتركهما وخرج من المسجد . ومضت برهة وتجلى الصبح ، وبدأ الناس يومهم . فأرسل الملك رجلين من قصره ليحضرا الدرويشين من بيت الله : ودخل الدرويشان القصر ، فأمر الملك بإكرام وفادتهما ، وتهيئة الوسائل لهما ، حتى يمثلا فى مجلسه . وأدخلا على الملك وقد استوى على العرش ، فحياهما وأجلسهما قريبين منه .

وتغير حال الفقيرين الحانقين ، وأصبحا يرفلان فى قشيب الحلل ، وزالت عنهما آثار الفقر ، وبدت عليهما مظاهر النعمة ، وقد اتخذا مجلسهما مع رجال الملك ، فى القصر المنيف ، بعد أن كانا فى خشية من البرد والمطر والسيل . وبعد أن كانا عاريين ، يرتعدان من البرد ، لبسا أثواباً معطرة برائحة العود

فقال أحدهما هامساً فى أذن الملك : أيها الملك الذى وضع حلق حكمته فى أذن الزمان ، إنك ترفع من تعجب بهم من رعاياك إلى أسمى المراتب ، فأى شىء رأيت فينا فأعجبت به فرفعتنا إلى هذا المقام ؟

* * *

فتفتحت أسارير الملك كما تتفتق عن أكمامها الورود وضحك فى وجه الدرويش وقال :

لست أنا الملك الذى يشيح بوجهه عن المساكين عتواً وغروراً ، فانزع عن نفسك

ا تملكها من غل عليّ فلا تؤذنى يوم القيامة ، عندما نقف أمام ربك ذى الجلال ؛
ى قد فتحت باب الصلح لك اليوم ، فلا تغلقن بابك فى وجهى غداً .

* * *

هذا هو الطريق السوى لمن يبغى السعادة من الملوك ، أن يأخذ بيد
لدراويش . إن الملك لا يمكن أن يجنى ثمرة من شجرة « طوبى »[1] ما لم
يكن قد زرع بيديه ما يريد أن يحصل عليه من ثمار .

إذا لم تكن لك على الخير إرادة فلا تبحثن عن السعادة ، فإنك « بصولجان
لعبادة تستطيع أن تحمل كرة السعادة » .

متى تضىء كالمصباح ؟ فإنك من الأنانية أصبحت كالقنديل مع الماء .

إن الرجل الذى يشع بنوره على الجماعة يظل نوره مضيئاً فى صدره كالشمعة .

بستان

٦٤

رقيق فى السوق

كاد قلبى يتفطر يوم مررت بالسوق فسمعت عبداً يقول لسيده وهو يبيعه :
واحسرتاه ، إنك واجد عبداً خيراً منى ، ولكنى لن أجد مثلك سيداً .

(بستان)

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (١٣/ ٣٠)

٦٥

الملاكم البائس

كان ملاكم قوى البنية شديد الضربات ، ولـكنه مع قوته كان عاثر الحظ ، ضيق الرزق ، لا يكاد يجد قوت يومه ، فهو فى الصباح يبحث عن كسرة تسد رمقه ، وفى المساء يبيت على الطوى .

وكان نهما ولم يكن يستطيع أن يقهر معدته على القناعة بالقليل ، فأخذ يحمل الأثقال فوق ظهره ، ليحصل على قوته ، بعد أن يئس عن الحصول عليه بقوة ذراعيه . وعلاه الهم ، وضاقت فى وجهه الدنيا ، فقلبه حزين وجسمه مضنى ؛ كان يقضى وقته يفكر فى سوء حاله ، فحيناً يستسلم إلى الهم والغم من الدنيا وقد أناخت بكلكلها عليه ؛ وأحياناً يضيق صدره حين يرى الناس فى خفض من العيش وهو محروم ، فيحس الماء مراً فى حلقه ؛ وأحياناً أخرى يبكى مما يلقى من المشقة والجهد فى حياته متسائلا أى رجل شراً مما أرى ؟ إنى أرى أناساً يشربون الشهد ، ويأكلون أشهى أصناف الطعام ، بينا أنا لا يرى رغيفى أرخص أنواع الخضروات .

وإذا كنت منصفاً ، فليس من الإنصاف أن أكون عاريا ، وعلى القطة كساء من الجلد . وا أسفا ، ليت السماء تلقى إلىّ بكنز من عندها ، إذاً لنفضت الغبار من على جسدى وروحى ولانغمست فى النعيم .

* * *

سمعت أن هذا الملا كم الشاكى كان يحفر فى الأرض ذات يوم ، فرأى ذقن رجل ميت ، وقد تكسرت منها عظام الفك ، وتناثرت منها الأسنان اللؤلؤية .
فلما رآها سمع صوتاً من هذا الفم الأخرس يقول :

لا تضق بالفقر صدراً يا سيدى . فهكذا ترى حال الفم تحت التراب ، سُكَّراً أكل أو حسرة فى الفؤاد . فلا يحزنك دور الفلك ، فإن دهوراً تنقضى على غير رغباتنا .

فلما سمع الرجل هذا القول ثاب إلى رشده واطرح الغم :

أيتها النفس التى لا رأى لها ولا حكمة فيها ولا تدبير ، تخلصى من همومك ولا تقتلى نفسك ؛ يستوى من حمل أثقال الهموم فوق رأسه ، ومن رفع رأسه مزهوا نحو السماء . هما سواء عندما تحين الساعة التى لا مفر منها ، فتتغير الأحوال ، ولا ترين تفاوتاً بين من أثقلته الهموم ومن كان غارقاً فى اللهو واللذات .

إن الغم والسرور لا يدومان ، إنما الدوام لجزاء العمل الصالح وللذكر الطيب .
ان الكرم يبقى ، فانفق مما رُزقت حلالاً ، ولا تتكل على الملك والجاه والعظمة ، فهذه كلها أحوال كانت من قبلك ، وستكون من بعدك ؛ فانثر الذهب فإن الدنيا فانية لا تدوم ؛ إن سعدى ينثر درر القول لأنه لا يملك ذهباً .

(بستان)

٦٦

خصومة

تشاحن رجلان ، وامتلأ قلبهما حقداً وبغضاً ، وأضمر كل منهما لصاحبه السوء ، وكانا ، إذا تقابلا ، رفع كل منهما رأسه على أخيه ، كأنهما نمران . وكانا يتحاشيان المقابلة ، حتى أن باب السماء أقفل فى وجهيهما . وراح كل منهما لا يألو جهداً فى قذف صاحبه والتشنيع عليه بالحق وبالبـاطل ، وأخذ الناس يتناقلون حديث خصومتهما فى ملال منهما وسخط عليهما جميعاً .

وأدرك الموت أحدهما فقضى نحبه ، وانقضت أيامه . وعرف خصمه ذلك فسره ما عرف ، وأخذ يفكر فى صاحبه الذى جندله الموت ، وفكر فى أن يراه ميتاً ، شماتة . وراح إلى القبر فوجده مغلقاً على الرجل الذى عاش فى قصر طلاؤه من الذهب . راح إلى القبر ولم يبك ، سره أن عاش بعد عدوه .

فتح الرجل باب القبر ، فرأى تاج رأس الميت فى حفرة من طين ، ورأى عينيه وقد ملئتا بالتراب ، ورأى الحشرات والنمل تسرح على جسمه الذى قر فى القبر سجيناً . ورأى وجهه الذى كان كالبدر صيّره دوران الفلك كالهلال ، وأما قده السروى فقد أصبح كالخلال . وتفككت راحة يده وتناثرت أصابعه .

***

لم يكد الرجل يرى خصمه ، وقد أجرى الموت حكمه فيـه ، فأصاره هشيما وتركه فريسة لهوام الأرض ، حتى رق قلبه ، وامتلأ أسفاً على ما كان بينهما ، ففـاض دمعه حتى ابتل تراب القبر وأصبح طينا . ندم الرجل على الضغينة التي كان يحملها لخصمه بين جنبيه ، وأمر بأن يُكتب فوق صخرة القبر :

لا يسرنك موت أحد ، فإن الدهر لن يمهلك بعده طويلا .

***

وسمع رجل من عباد الله الصالحين هذه القصة فبكى وقال :

اللهم يا قادر ، عجيب إذا كنت لم ترحمه ، فقد أتى عدوه الدود حزينـاً باكياً عليه ،

إن جسدى سيوسد يوما الثرى وسيبكى عليه أعدائى ، ولا شك أن قلب صديقى سيرق لى ، حين يرى عدوى يبكينى وقد عفا عنى .

إن عاجلا أو آجلا يأتى يوم تكون رؤوسنا ولا عيون فيها .

***

ضربت مرة بالفأس فى تل من التراب فارتفع صوت مؤثر إلى سمعى يقول :

ترفق إذا كنت رجلا ، فهنا عيون وآذان ووجوه ورؤوس .

ترى هل يسمعان ؟

(بستان)

٦٧

الثعلب والمتواكل

رأى رجل ثعلباً مقعداً ، من غير يد ولا رجل ، فتعجب من لطف صنع الله ، إذ كيف يعيش هذا الحيوان ومن أين له الأكل . وهو عاجز لا يقوى على السعي لرزقه . وبينما كان الدرويش حائراً فى هذا ، إذا بأسد يدخل حيث الثعلب قاعد ، وفى مخلبه ابن آوى ، فأكل الأسد من فريسته التعسة وبقى منه ما يكفى الثعلب حتى يشبع .

وراقب الرجل الثعلب فوجد الأسد يرعاه فى اليوم التالى ، وهكذا الرزاق بعث بقوته إليه . فتيقن الرجل أن الله يرزق عباده ، فانصرف وتواكل على ربه . قال : سأذهب إلى ركن فأقعد فيه ، كالنملة ، فإن الفيلة لا يأتيها رزقها بالقوة . وجلس محنياً رأسه مخفياً إياها فى جيبه ، منتظراً الرزاق يبعث إليه قوته من الغيب . وظل الدرويش حتى برح به الجوع ، فلم يسع إلى إطعامه أجنبى أو صديق ، فخارت قواه ونحل جسمه ، وأصبح كالربابة ، عصب وعظم وجلد .

فلما نفد صبره وعقله من شدة الضعف سمع صوتاً يقول له من خلف الجدار :

أخرج أيها الوغل وكن أسداً مفترساً ، ولا تحسبن نفسك كالثعب الأشل ؛ واسع حتى تأكل وتشبع ويفيض منك كما يفيض من الأسد ؛ لماذا تكون كالثعلب المقعد تشبعك الفضلات ؟

إن من له رقبة غليظة كالأسد ، الكلب خير منه إذا تواكل وارتمى كالثعلب المقعد . إسع إلى رزقك بيديك ، وعش سعيداً مع الآخرين ، ولا تجلس منتظراً ما يجود عليك به الناس . وكل ما استطعت من جهد ذراعيك ، فإن جهدك لك . كن كالرجال ، يتعبون أنفسهم ويريحون غيرهم ، فإن المخنث هو الذي يأكل تعب أيدي الآخرين .

خذ أيها الشاب ، بيد الشيوخ من الفقراء ، ولا تلق بنفسك هكذا وتستعن بالناس . إن الله يرضى عن عبده الذي يسعد الناس من وجوده بينهم ، وإن الخيِّر العاقل هو الذي يجود بماله ، أما أدنياء الهمة فلا عقول لهم .

إن الخيِّر الذي يحسن إلى الناس هو الذي يسعد فى الدنيا ويهنأ بالآخرة .

(بستان)

٦٨

نصيحة

شكى أحد المريدين إلى شيخه مضايقة الناس له وكثرة ترددهم عليه ، مما يضيع عليه وقته الغالى ، فقال له الشيخ :

أقرض فقيرهم واستعن غنيهم ، ينفضوا جميعاً من حولك ، ولا ترى فى بيتك منهم أحداً ، ويطيب لك الزمان .

(كلستان)

٦٩
الوقيعة

اختار الملك أفريدون وزيراً من بين أعوانه ، وقد اختصه بحبه ، وآثره بعطفه ، وأولاه ثقته ، فكان يركن إليه فى كثير من شئون الدولة ، كما ترك إليــه تصريف كثير منها . وكان هذا الوزير رقيق الحاشية ، بصير القلب ، بعيد النظر ؛ وقد جهد حيـاته كلها فى إرضاء ربه وخدمة ملـكه ، فـكان يقوم بواجباته الدينية خير قيام ، ثم يقضى بقية وقته مكباً على عمله بالنهار ، ساهراً على أدائه بالليل ، عاملاً دائماً على أن يكون أهلاً لثقــة ملـكه فيه .

* * *

ولـكن الوزير الطيب لم يسلم من لسان السوء لخبيث يسعى ضده عنـد الملك ، فقد ذهب رجل إلى الملك ذات صباح وقال له :

مولاى : لاتحسبن نصحى لك عن غرض فى نفسى ، فإنى ماأردت غير النصح خالصاً لوجه الله ، إن وزيرك الذى تثق به وتنزله من نفسك مكاناً علياً ، هو عدو لك مبين ، فإنه دائن لجميع أهل المدينة ، جنداً ومدنيين ، وقد اشترط على مدينيه أن يوفوا ديونهم حينما يموت الملك العظيم ، فهو لايريد

لك طول الحيـاة ، مخافة أن لا تحل ديونه . أبقاك الله وحفظك يا مولاى من أهل السوء .

* * *

فلما سمع الملك حديث الرجل آلمه أن يخدع فى الوزير بعد طول ثقته به ، واعتماده عليه ، وحبه له ، فناداه يوماً ونظر إليـه نظرة المغيظ المتوعد ، فأدرك الوزير أن قلب الملك قد تغـير ، وأن ساعياً بالشر قد سعى بينهما ، فألقى إليه الملك أذناً صاغية ؛ ثم لم يلبث الملك أن قال له :

- إنك تظهر لى المودة ، وتضمر السوء .

وهنا أيقن الوزير أن أمر إقراضه الناس ماله هو الذى بلغ الملك فرأى أن التصريح بالحق أجدى من الكتمان ، فقبل الأرض والتخت . ثم قال :

« إنك تسألنى يامولاى وسأقول الحق ، شأنى معـك فى عملى ، حتى تنجلى الغمة ويذهب عن نفسك ماظننت بى من سوء . إنى أردت أن يصفو لك حب رعاياك جميعـاً ، وأن يتمنوا لك السعادة وامتداد الأجل ، فإنى حين جعلت من موتك موعداً لوفاء ديونهم ، كنت أدرك أنهم سوف يدعون لك بطول البقاء ودوام الهنـاء . أفلا تريد يامولاى أن يدعو لك الناس صادقين مخلصين بأن تحيا حياة طويلة هنيئة ؛ إن الناس يعتقدون إن دعاء أهل الخير درع يتقون بهم سهام البلاء ، فلتكن أصواتهم الصاعدة إلى السماء بطول أجلك ، ودوام سعدك ، مستجابة عند ربك » .

فلما سمع الملك كلام وزيره ، سره حسن قصده ورضى بعـد الغضب وعادت إليه ابتسامته وتفتحت أسارير وجهه كالوردة النضرة ، إشراقاً ونوراً .

* * *

إنى لم أر شراً من غماز نكد الطالع ، عاثر الحظ ؛ إنه يلقى العداوةَ والبغضاء بين صديقين ، بجهله وضلاله ، ولا يدرك بعقله الضيق أنه إذ يلقى النار بين رجلين فإنه سيحترق فى وسطهما .

إذا كنت ، كسعدى ، قد تذوقت لذة الخلوة ، وكففت لسانك عن التحدث فى أمور الدنيا والآخرة ، فقل ماتعلم من النصح المفيد ، ولو لم يعجب أحداً ، فإن من لم يستمع إليك سيصيح غداً وهو نادم :

ليتنى استمعت إلى صوت الحق .

(بستان)

دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

أصدرت بأشراف الدكتور طه حسين بك

محمد سعيد العريان ... من حولنا (قصص مصرية)

يحيى الخشاب ... ... حكايات فارسية

أندريه چيد ... ... الباب الضيِّق (تعريب نزيه الحكيم)
مع رسالة من أندريه چيد إلى المترجم
ورد طه حسين إلى أندريه چيد

أندريه چيد ... ... مدرسة النساء (تعريب صبرى فهمى)

أوسكار وايلد ... ... صورة دوريان جراى (تعريب لويس عوض)
طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم « صورة
دوريان جراى » إنتاج « مترو جلدوين ماير »

أوسكار وايلد ... ... شبح كانترڤيل (تعريب لويس عوض)
طبعة مزينة بصور مختارة من
كانترڤيل » إنتاج « مترو جل

وستصدر الدار طائفة من الكتب العربية التى قام
أدباء معروفون كما ستنقل إلى هذه اللغة مؤلفات أوروبية و
وستقوم قريباً بنشر الكتب العربية القديمة والمخطو

دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية

٥ شار
القاهرة مصر

الثمن ٢٠ قرشاً